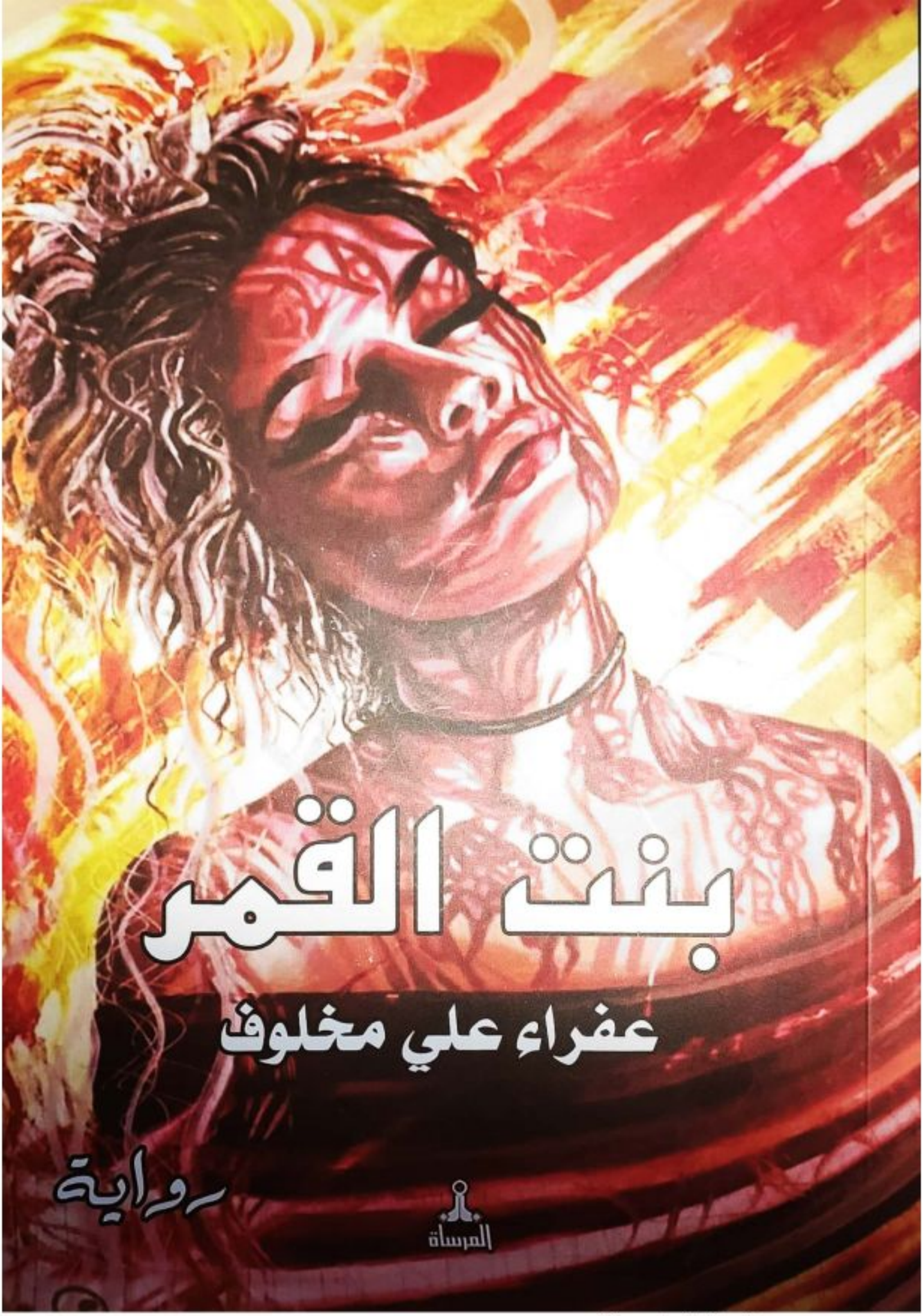

Scanned with CamScanner

تمتلك عليا روح محاربٍ روضتْ شياطين ذاتها، فتخطتْ أوجاعها مبتعدة عن ذاك الماضي بثقبه الأسود الذي كاد يبتلعها، متمسكة بالحب والاهتمام المحاطة به ما حقق نجاحها رغم زلازل الأقدار و تتالي الفقد...

دار المرسـاة للطباعة والنشر والتوزيع
سورية - اللاذقية - 0936482050
المرساة
9 789933 932053

Scanned with CamScanner

- بنت القمر
- عفراء علي مخلوف
- رواية
- جميع الحقوق محفوظة
- الطبعة الأولى 2021
- لوحة الغلاف للفنان: ماجد وعد الله فرج (Majid Faraji)
- تصميم الغلاف: القسم الفني في دار المرساة

دار المرساة للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا. اللاذقية . 0936482050

عفراء علي مخلوف

بنت القمر

رواية

Scanned with CamScanner

الإهداء

إلى كلّ أنثى نضجتْ على نار الحب، وأوجاع الفقد، حتى نبتت أجنحة أحلامها، وحلّقت بذاتها..

Scanned with CamScanner

المقدّمة

بناتُ القمر كواكبٌ تتوالد في مواسم السّمر، عند الألم توازن بين قلوبها وعقلها لتفوز بنمط حياة يتّصف بالنجاح مهما افتقدت راحةَ البال..

قوياتٌ هنّ على الظروف، نقيّات..

أرواحهنّ من نار، وقلوبهنّ تشعّ باحتراقها نوراً ليضيء من حولهنّ لهُنّ، ولأحبابِهنّ دربَ المستقبل..

فالقمرُ يفردُ أجنحةَ الجمال ليهدهدَ أحزانَ البشر يستمعُ لهم ويحثهم على البحث عن مواطن القوة في دواخلهم كما أسطورة القمر(الإلهة إنانا)..

حين تفقد عزيزاً تسارعُ إلى العالم السفلي باحثةً عن فقيدها تتجاوزُ البوابات السبع..

لا تهابُ حرّاسَها الغلاظ الأشداء، وتتخلى عند كلّ حارسٍ عن شيء من متاعها إلى أن تصلَ إلى أرشكيجال، وتقفُ أمامَهُ عارية وبذلك يكونُ القمرُ في حركته مشابهاً لحركةِ الطبيعةِ.. وجسد

Scanned with CamScanner

الأنثى في دورتها الشهرية، لتعاودَ كلّ شهر تجديد قواها وتستعيدَ زينتَهَا عند خروجها من العالمِ المظلمِ..

تقاومُ أوجاعَ الفقدِ بشجاعةٍ، وتضيء الكونَ بابتسامةِ وجرٍ، وتُرمّمُ بالعطاءِ روحَهَا، فتنشرُ الفرحَ والجمالَ، تعيشُ مزاجيّتَهَا بما يناسبُ ظروفَها، تسجنُ الزمانَ بأقفاصِ المكان لتتشرّبَ الحكمةَ من كؤوس الوقت فيثملُهَا النّضجُ وتفردُ الأمانَ في مواسمِ الضّعفِ وتعلنُ الوئامَ بهدأةٍ واطمئنان..

الكاتبة

Scanned with CamScanner

استيقظتْ بقلبٍ مفعمٍ بالأمل بعد خوضِها تجربةً مريرةً مع المرض، جعلتْ أيامَها بطيئةً تترقّب فيها موتاً رحيماً، أو تتلمس شفاءً عليلاً، نهضت من سريرها مُنتصبةَ القامة، ضفّرتْ شعرَها جديلةً على شكل ذيلِ حصانٍ قصيرٍ ورمته مع كل همومها خلف ظهرها، تستقبل يوماً جديداً تتسلح بابتسامة أمل..

لفلفتْ نفسها بثوبها الأبيضِ الفضفاضِ، وخرجتْ تطلب دفءَ شمسِ الصباح في حديقة منزلها الريفيِّ المنعزل، متأملة المدى البعيد وراء أشجار البرتقال، وعلى يسارها بعض القبور المسوّرة لأسلافٍ لا تعرفهم دون شواهد تدل على أسمائهم.

أغمضتْ عينيها كعصفورينِ صغيرينِ آمنينِ، تتنفسُ عبقَ الطبيعةِ رافعةً رأسها، ليتلقى وجهُهَا الأسمرُ المزيّنُ بخالٍ على خدّها الأيمن، وآخر في أسفل الذقنِ، ضوءَ الشمس نابشةً أعماقَ ذاتِها ما جعلها تبتسمُ بحزنٍ متّزن ورضىً، ترنو إلى حلمٍ يرسم مرحلة سعيدة.

منذ أكثر من أربعين عاماً كانت طفلةً صغيرةً، شقيّة، عنيدة، تسحرها الطبيعةُ والأحلامُ، تجلسُ على غصنِ شجرة ليمونٍ كأنه

Scanned with CamScanner

عرشها، متخيّلةً الغيومَ أشكالاً، تبتدعُ لكلٍّ منها حكايةً، تراقب تحوّلاتها، تفرحُ لتغيّرِ أشكالِ بعضها، وتحزنُ لأخرى، كأنّ أحدَهُم أتلفَ، عن قصدٍ، لوحتَها..

لم تكنْ كثيرة الاجتهاد تهتمّ بدروسها لكنّها كانت ملتزمةً بالمدرسة، هادئةً في أثناءِ الحصّةِ الدّرسيّة منطويةً قليلاً، شاردةً كثيراً..

شغفُها الكبيرُ للمطالعةِ يدفعُهَا إلى قراءة كلّ ما تقعُ يدُها عليه من كتب اجتماعية سياسية وحتى دينية، فتقول حين تُسأل عن ذلك: أمتطي الأحلامَ على صهوةِ كتابٍ، أسافرُ، أمخرُ العباب.

ـ فضولُها غريبٌ، في أحدِ الأيامِ قرّرتْ أن تكتشفَ هل تتشابَهُ بيضةُ الحمامِ مع بيضِ الدجاجِ.؟ سرقت بيضة من عش الحمام الذي يحوي ثلاثَ بيضاتٍ، وكسرتْهَا، لم يشفِ فضولَهَا ما شاهدته، نقطة صفراء صغيرة والكثير من الزلال فانتظرت أياماً عدّة وسرقَتْ البيضةَ الثانيةَ ووضعتها في وعاء ملأتهْ بالماء ووضعته على النار لتسلقها صدمت كثيراً وحزنت أكثر عندما أزالت القشور عن صغير حمامٍ ماتَ على يدها مقتولاً بأبشع طريقة وبقيت أياماً تلاحقها كوابيس مرعبة في منامها بسبب صغير الحمام ذاك فتراه وحشاً ضخماً يلاحقها لينتقم منها، متجاهلةً حيرة أخيها وغضبه

Scanned with CamScanner

لفقدان البيض من العشّ، وهو يعتقد أن حيواناً ما سرق البيوض ليأكلها وبقي يراقب العشّ أياماً أمام صمتها.

كبرتْ، وهي تعيشُ عالمَها الخاصَ وأحلامَهَا المتزايدة، يرعاها والدُها المعجبُ بمشاكساتِها وقوّةِ شخصيتِها وعنادها على الحقّ ضمنَ أسرةٍ تغمرُهَا علاقةُ الحبّ والوئام لأبٍ فلاحٍ حكيمٍ منفتحٍ، وأمٍّ طيّبَةٍ، وإخوةٍ كثيرين يساندُ بعضُهُم بعضا، لا يخالطونَ أبناءَ الحيِّ إلا نادراً، يقضونَ أوقاتهُم بين المدرسةِ ومشاهدة التلفاز الوحيد في القرية، واللعبِ، فهم يتقنون كلَّ أنواعِ التسالي من نردٍ وشطرنج وورق، وفي حال غياب أحد الأفراد يُتمّمُ النصابَ والدُهُم، ما كسر حواجز كثيرة بينهم، فبات صديقهم..

تجمعُهُم شجرةٌ وارفةٌ تميّزُ ذاك البيت الكبير، يقضونَ أغلبَ أوقاتِهِم في ظلالها تقيهم حرّ الشمس، وتحفظ أسرارهم، لو نطقتْ هذه الشجرةُ لحكت الكثير من الروايات الممتعةِ والحزينةِ التي كانت شاهدة عليها على مرِّ حياتهم.

ـ تتالتْ الأيامُ، ونمتْ الفتاة، وبدأت تتفتّحُ كزهرة مخمليةٍ، بقامةٍ قصيرةٍ ممتلئةٍ، وصدرٍ عامرٍ، وشعرٍ أسودَ طويلٍ ساحرٍ يميّزها عن كلّ فتيات القرية، بشرتُها السمراءُ تبدو كرغيفِ خبزٍ ناضجٍ، وبنيتُها متينةٌ تغالب الصبيان من إخوتها، وتساندهم في كلّ

Scanned with CamScanner

صراعاتهم مع أبناء الجيران، وقلبُها قلبُ عصفور صغير أخذ ينقر قضبانَ الجسدِ الغضِّ، متلهفاً للطيران خارج أسواره، وهكذا تعلق بشابٍّ خبيرٍ وبدأتْ مسيرةُ النضج عذاباً بصمت.

كثَّفتِ الحراسةَ على قلبها، وحجبتْ أيَّ إعجابٍ تتلقاه من أيّ شابٍّ يمرّ في حياتها، ومع نموّ الحبّ في قلبها كبُرَ الرَّفضُ في عقلها..

فهي الحالمةُ المتزنةُ التي لا تحبّ أن يشاركَهَا أحدٌ بمتلكاتها، ولا بأشياء تخصّها مهما خسرتْ، وهو الماجنُ الخبيرُ الجائعُ للحياة ومُتَعِها، المنفلتُ من قوانين المجتمع والعادات.

انزوت تراقبُ مغامراتِهِ سنيناً مضتْ، يسردُها أمامَها بغرورٍ ما جعلها تنفرُ منه، لكن دون أن تقدرَ على قتل حبّهِ في قلبها أو أن تقلّلَ من درجة عشقها له، التقيا بعدها في غربةٍ فكان أن عبّر لها عن اكتشافه لكنزِهِ الذي يبحثُ عنهُ منذُ أمدٍ بعيدٍ وطبعاً كان يقصدها.

صمتتْ.. تُشيح بوجهها عنه مغمضةَ العينين، مستمتعةً بكلّ حرف نطقه، وهي تبتهل ألّا يكونَ قادراً على سماعِ دقاتِ قلبها المتراقصِ بين أضلعها، تحاول تهدئة روحها الصاخبة وعندما فتحتْ عينيها رأتْهُ ماثلاً أمامها، يراقبها، ويتأملُ وجهها، ضحكا معاً، لكنّها قابلتْ ذلك الحب بالرفض.

Scanned with CamScanner

امتلأ صدرُها بالنفورِ والجفاءِ شهورٌ مضتْ كأنّ ما جرى لم يكن سوى حادثةٍ عابرةٍ وانقضت، وبعد مرورِ عامٍ عاد نزار يلاحقُها.. و بحبّه يصارحها، ورغم ذلك لم ينقطعْ عن مغامراته، فبات قلبُها يعذّبُها، وعقلُها يوجّهُهَا ويمنعُها عنه، فجدّدتْ رفضها له بشيء من المكابرة، تتجاهل شغفها لسرقة لحظات تعيشها معه على أنهما حبيبان.

- تذكرتْ عليا كيفَ كانتْ ردّةُ فِعلِ والدِها عندما صارحتْهُ أنها لا تريدُ نزارَ زوجاً، لكنّها ترغبُ بالارتباط به مدّةً محدّدةً، حتى لا يظلّ في قلبها حسرةٌ وحرقةٌ طول العمر.

اعترضَ الوالدُ بدايةً مستنكراً الفعل وما يلحقه بها من ضرر، وبقلبِهِ الطيبِ وعقلهِ الراجحِ العصري فكّرَ وقرّرَ موضّحاً كلَّ التداعيات لها من الزعل بين الأقارب، وخشيةَ أن تتورّطَ بحبّهَا أكثرَ إلى المغامرةِ بسمعتِها بين الأهل و أفرادِ المجتمع.

وخلال لقاء اعترافٍ جديدٍ جلسا كحبيبين بعد سنين من الإيحاءات والإيماءات، وعاشا شهر لقاء ومناجاة، وعندما لامستْ يدُهُ يداها تذكرت مبتسمة وقالت:

اعترتني ومضةٌ شتّتتْ كياني، غيّرتْ حالي، جعلتْ قلبي يقفز من بين أضلعي، وجسدي يَتفصّدُ عرقاً ويحترقُ.. إنّها لمسةٌ إلهيةٌ،

Scanned with CamScanner

شَعرتُ بأمانٍ لا مثيل له، واضطرابٍ لم أعهدْه، كذرّةٍ في فراغٍ ترتجف، ليس من الوحدة أو البرد بل من نشوةٍ عَطِرةٍ سَرَتْ كأنها تيارٌ يميت بلذة.

وحين جاءت لحظة الفراق خبا نبضُها، وزالَ بريقُ عينيها، وقلّتْ همّتُها للعمل، وفارق النومُ مقلتيها وأخذتْ تذوبُ كشمعة، وبدأ القلقُ حولها من أهلها على صحتها، وثارَ والدُها والحيرة تملؤه فاصطحبها إلى طبيب نفسي أقرّ أنه لا يوجد لديها أي مرض عضوي فأعطاها بعض الأدوية والفيتامينات التي لم تتناولها، لأنها الوحيدة التي تعلم ما يجري لها، وما الذي يموت في قلبها، مقتنعةً أنّها مرحلة ستمضي من عمرها، وأنها سوف تتغلب عليها بقليل من الصبر وكثير من الحلم.

سألتها بتوجس لأني أعلم طبعها فمن يعرف الكثير عنها تُقصيه:

- لماذا الفراقُ وأنت تحبينه؟

وَمَضَتْ عيناها، وسطعَ فيهما شعاع نور وتصميمُ وهمهمت:

- لو بقينا معاً لأصبحتُ كوكباً تائهاً في فلكه، وانقضى عمري في لهيبه منصهراً، وذَبُلت روحي، وشعلةُ أحلامي انطفأت، لكنّ

Scanned with CamScanner

رياحَ الرفقة جرفتني، والاهتمامَ حَرَفَ وجهتي، فغدوت نهراً رقراقاً يهدرُ في سهول العشق.

عدّلتْ الوشاحَ على كتفيها، تنبش ذاكرتها وغابت في صمتها قليلاً.. ثمّ تابعتْ:

تلاشت أغلبُ الذكرياتِ التي جمعتني بذلك الشاب، وأصبحتْ مجرّدَ خيالات متطاولة لا أثر لها إلا المعنى وبعض ذكرى.

فالحبّ يُزهرُ القلبَ ويعطي أملاً للغد.

نسيتُ كيف افترقنا، هل هو الذي تخلّى عني؟

أم أنا أقصيته لسبب ما!!

التقينا بعد الفراق مرّاتٍ ومرّات، لكن بعدَ أنْ أكلتْنَا متاهاتُ الحياة، وأصبحَ من الأفضل لنا أن نتركَ جراحات الماضي نائمةً في سبات.

إلّا أنّ فضولي المعتاد جعلني أتوه في تجاعيد وجهه، وأنصتُ لنغمات صوته، وجعلني أُبحر أيضاً في عينيه بقوةٍ دون حياءٍ علّي أرى طيف حبيبي بهذا الوجه الغريب وكان هو يهرب بنظراته، مدارياً حيرتي بكلمات النصح المتزنة، وبعد أن يغادر أفكر: هل ملامحه هي التي تبدلت أم أنّ نظرتي له تغيرت..؟

Scanned with CamScanner

أتساءل: لماذا لا يتجرأ البشرُ، سواء أكانوا أصدقاء أم أحباء، على التحدّث، عند اللقاء بعدَ طولِ غياب، عن السبل كيف سارت بهم إلى الفراق، بسببِ قصصٍ معلّقةٍ دون عتاب..؟

أيتها الصغيرة! لا تنمو يرقات الماضي وتحاولُ الخروجَ من الشرانقِ والتحوّلَ إلى فراشات إلا عندما نمرّ بلحظاتِ حزنٍ وخيبة، فننبشُ الجمالَ بمعولِ الحنينِ لنرمّمَ هزائمَ الحاضرِ بذكرياتِ الماضي دون التطرّقِ لخيباتِهِ.

فالحبُّ العذريُّ يبقى أثرُهُ الجميلُ، لأنّ نهايتَهُ مفتوحةٌ، ولو تكلّل بالزواج ومتاعبِ الحياةِ اليوميّةِ لتحوّل إلى ذكرى عاديّةً وانتهى بفشل محتم، فهو حبّ انجذابٍ بلا أسباب.

أما حبّ القلبِ فإنّه إذا تناغمَ مع العقلِ يصيرُ أبديّاً قوياً مهما اعترضته أعاصيرُ الحياة يحافظ على ثباته فيصمد.

قالتْ كلماتِها وهي ترنو باتجاه رجلِهَا الذي يقطف لها أزهارَ النرجسِ البرّيّ من أطرافِ حقل الليمون، باعثاً لها قبلاتٍ إيمائيّة، كلّما نظرتْ صوبه ابتسمت برضىً وفرح طفلةٍ متّزنةٍ وتابعت:

- للحبّ أطوارٌ يا سُعاد، في عمرِ الزهورِ يكونُ شعاعاً متمرّداً يخترقُ القلوبَ مسبّباً انجذاباً رغمَ كلّ التناقضاتِ، فيكونُ ساحراً مجنوناً، مفرحاً مؤلماً، والوعود فيه ماضية، أمّا بعدَ النضج فيصبح

Scanned with CamScanner

الحبُّ سهاماً تنطلقُ من العيون، محمّلةً بالاهتمام، والهمسُ فيه يوقظُ مشاعرَ منذ الأزلِ منتظرةً رفيقَ روحٍ يناجيها بحنينٍ صامتٍ، ليصبحَ الوعدُ ميثاقَ حقٍّ مشكّلاً جنّةَ خلود.

فالقلوبُ يا غاليتي تولّدُ الحبَّ، متى احتجنا إليه، إذا لم نغلق نوافذَها..

- زارنا صديقُ إخوتي، وهو شابٌ مهذبٌ لطيفٌ درس إدارة الأعمال، يأتي من القرية المجاورة... عبّر عن اهتمامه بي، وإعجابِهِ في أول زيارة لبيتنا بعد طولِ غيابٍ مستغرباً كيف كَبُرتُ ونَضَجتْ ثماري وفاحت عطوري!.

بسببِ صدقي مع ذاتي رفضتُ عرضَهُ في البداية، لكنّ إصرارَهُ وتكرارِ زياراتِه ومشاكساتِه وبزيادةِ اهتمامه بي استطاع أن يجعلَ من نفسَهِ محورَ اهتمامي، وأخذَ حبّهُ في قلبي ينمو كيرقاتٍ صغيرةٍ متحوّلَةٍ إلى فراشات نور، تجعلُ القلبَ المنغلقَ يتفتح كالزهور، يهبني شعوراً جديداً، وساعدتُ نفسي بأن شرّعت نوافذَ القبولِ بالتعارفِ كصديقٍ مُقرّبٍ، فنحنُ أبناءُ منطقةٍ واحدةٍ متجاهلةً صداقتَهُ بنزار. فقد دنوتُ من الثلاثين، وأريدُ أن أحقّقَ حلمي بتكوين أسرةٍ جميلةٍ مستقرّةٍ.

Scanned with CamScanner

تسارعتْ تطوراتُ علاقتنا دونَ الالتزام بالعادات، يَدعمني والدي في كلّ قراراتي.

تمّ الارتباط بعد طلبي رسمياً فأعطيتُهُ خاتمَ والدتي وطلبتُ أن يُجلبَ لي مثله كحابس، تمّتْ الخطوبةُ ببساطةٍ ومن دون حضورٍ رسمي، وأخذنا نُجهزُ عشّنا الزوجيّ، نتساعدُ بذلك دون تعقيدٍ أو بزخٍ، وبدأت حياتُنَا معاً كحلمٍ جميلٍ عشناه نحن، ورآه الناس، حتى صار لقبنا بين الأهل والأصدقاء بالعاشقِ والمعشوقِ ورحتُ أتجاهلُ مشاكساتِ نزار ليستسلمَ بعدَ حين، فحيناً كان يبعث بالأخبار مع أخي الذي صادقه رغم فارق العمر بينهما ليتابع تطورات حياتي، وأحياناً يتصل دون أن يَرد لمجرد سماع صوتي، كان يختار نفس توقيت اتصالاتنا سابقاً، يضربُ سماعة الهاتف ضرباً خفيفاً بأسنانه فأدرك أنه يتناول الكحول، ما كان يُعَزّز ثقتي باختياري وصحّة قراري فأُغلق السمّاعة..

وبعد أن أتحقق من إغلاقه سماعته أترك سماعة هاتفي مرفوعة فلا يتمكن من إعادة الاتصال مرّة أخرى..

أتى فادي يحملُ زهورَ النرجسِ الفواحةِ، واحتضنَ جسدها طابعاً قُبل الشوق على وجهها، مقترباً ينشدُ خمر ثغرِها لتبتعدَ بابتسامة دلالٍ مصحوبةٍ بالخجلِ والوجلِ، تناولتْ الزهورَ من يديه

Scanned with CamScanner

بملامحَ طفلةٍ تلقّتْ هديتها التي تُحبّ، برقتْ عيناها، وشعّت قسماتُها بفرح، وأخذت تشمّ الزهور تارة، وتارةً أخرى تتلمسُ وريقاتها البيضاء كفراشةٍ ناعمةٍ صغيرةٍ، تتأملُها بفضول، ثمّ تعودُ لتتنفّسَ عبقَ الزهورِ مغمضةَ العينين بعمقٍ من يغرس ذكرى في أعماقه، فتحت عينيها تشكره بنظرات غزل كأنّها همسات حب.

جذَبَهَا إلى صدرِهِ بقوّةٍ وحذرٍ مَن يقطفُ ثمرةً ناضجةً فريدةً، متجنباً أنْ يفسدَهَا موجهاً كلامه لي: اذهبي سعاد سأهتم أنا اليوم بحبيبتي عليا.

مشيا متعانقين باتجاه عشهما بادلتْهُ قبلة ليسقطَ ذاك الشالُ دونَ أن ينتبها له دخلا كوخَهُما وخلفاه على الأرض.

أجلسها على السرير، وبدأ يقبّلُ عنقَها مباعداً ثوبَها الفضفاض، هامساً: كم أحبّك وأشتاقك؟! انتفضَتْ متشبثةً بالثوب، وهي ترتجفُ وجلاً بعدما فقدت بعض ثقتها بنفسها من جراء مرضها وبلطفِ عاشقٍ قبّلَ يديها ونزعَهُ مطمئناً إياها لا تخشي يا حبيبتي، فتلك الندبة لن تؤثّرَ على حبّكِ في قلبي أو تقلل من جاذبيتك في نظري واضعاً أذنه على ندبتها المسطحة مغمضاً عينيه قائلاً: الآن أستطيعُ أنْ أسمعَ دقاتِ قلبك بوضوح أكثرَ..

اهدأي.. اهدأي حبيبتي حتى يهدأ قلبي، همس يهدهدها.

Scanned with CamScanner

وعند انتظام دقاتِ قلبيهما رفعَ رأسَهُ، وقبّلَ ندبتها مراراً وتكراراً متذكراً بحسرةٍ صدرَهَا الغافي كتوأمي حمام ينويان هجر عشهما مكتنزانِ نَضران..

وعلى أنغام ذكراه اجتاح جسدَها بحنانِ وشوقِ مهاجرٍ عادَ إلى الوطنِ بعدَ طولِ غياب، يتلذّذان - كما الماضي- بكلّ لحظة، يغوران بعمق تضاريسهما، يكتشفانِ ما تغيّر وتبدّل بمتعةِ الأغرار، كعروسين حبيبين في أول يوم لهما على انفرادٍ، واستسلما للنوم وهما يتهامسان متعانقين.

- أيقظها ذلك العصفورُ المواظبُ على القدوم كلّ صباحٍ، والمعتادُ على الوقوفِ في المكان ذاته، يغرّدُ باعثاً الحبّ في قلبها. أغمضت عينيها محلقةً في فضاء السعادة، وكالعادة لم تغادر فراشها إلا بعد رحيله ببرهةٍ، على قولتها، لتستجمع طاقة الكون التي يصدح بها فتنعمُ بالرضا طيلة يومها ويساعدها على ارتداء ابتسامة الهناء والأمل..

جالتْ بنظرِهَا تبحثُ عن حبيبها، حتماً كان يراقبها أثناء تناوله قهوته، وهي غافية بسلامٍ، تاركاً فنجانها ليبرد، تعلوه طبقة من الرّغوة كما تُحب، نهضتْ متكاسلة.. نظرتْ في المرآة، وابتسمت برضا لوجهها الذي استعاد لونهِ وبريقه النّضر بفعل

Scanned with CamScanner

عودة الثقة بجسدها، ما رمّمَ فقدَها، تناولت هاتفها النقّال، تصفّحَتْ بعض الإشعاراتِ والرسائلِ وهي ترتشف قهوتها الباردة باستمتاع.

أجفلتها بعضُ الأصواتِ المتتاليةِ القويّةِ، وعلمتْ بالخبرة أنّها، كالمعتاد، صواريخٌ جهنميّةٌ تطلقها مجموعات همجيّةٌ بين حينٍ وآخر على المناطق الآمنة كلما أحرزَ فرسانُ النورِ، أولادُ الشمسِ نصراً...

فشردت لحظة تفكر:

هذه ليست حرباً أهليّةً، ولا مؤامرةً كونيّةً، بل هي الحرب النفسيّة التي نستحقّها لكي نختبر قدرتنا على الفقد والحبّ وترجمة الحريّة، وفقَ منطقِ الإنسانية، لتُعبّرَ عن ضيقِ أفقنا، وقلّةِ وعينا، وانحرافِ إنسانيتنا، فعندما يندلعُ العنفُ تعمّ الفوضى، وعندها تُمتَحَنُ إنسانيةُ البشر، وتظهر جَهالتُهُم وسهولةُ انجرارهم واستخدامِهِم لتخريبِ أوطانِهم.

لقد أصبحنا عبابيداً سكنتْ بعضَنا الأحزانُ من وجعٍ، وفقدِ لأحبابٍ هم مشاعلُ النورِ، بهم سنربحُ القضيّةَ على الرغم من أنهم سيصبحون مجرّدَ ذكرى.. ذكرى منسيّة...

وهناك مجموعات انساقت وراء العصبيّات المذهبيّة، وصدّقت الإعلانات المفبركة، التي ساهمت في نشر أكاذيب الرّعب

Scanned with CamScanner

والإرهاب، و أمل الأحبة قد خاب، فخرجت على شكل جماعات مجرّدة إلا من الثياب إلى مصير مجهول في مخيّمات حيث استقبلتهم الذئاب التي تذيقهم القهر وتمارس عليهم العهر بسوقهم للبيع في أسواقها الإنسانية الداعرة بمظهرها الفاخر..

وكما في كلّ مرّة يدفعُ الأبرياءُ ثمن خطايا الماضي، وضريبةَ الحاضرِ، لتحيا ضباعٌ تعيش على جيف تفوح منها رائحة العفن والفساد و تُراكمُ أرصدتها، وتؤسّس تاريخاً يَدثر ماضيها المخزي زاحفةً تحصد ثمارَ نصرٍ صنعَهُ بعضُ النبلاء، وكثيرٌ كثيرٌ من الشهداء الذين تساقطوا كما النجوم المتلألئة، وبغيابهم أظلمتْ بيوتٌ، وخبتْ قلوبٌ عشعش الأمل يوماً ما فيها بسببهم، وبأفولهم تَمزّق الحلم المنسوج منذ الأزل..

واختلطت دماؤهُم مع تراب الزمنِ لِتنبتَ من طيبهم شقائق النعمان، وتبقى المرارة في قلوبٍ يسحقها الشوق، وتقتلها ظلمة الروح وذكرى المكان. في الحروب ليس هناك من رابحٍ، كلّ الأطراف خاسرة، تُحرَقُ الأحلامُ وتبقى الجروحُ نازفةً، والذكرياتُ موجعةً..

- أنهتْ قهوتَها بهدوء تام، وأزاحتْ مسحة الحزن عن وجهها، كما أبعدتها من قلبها بانتفاضةٍ من رأسها الشامخ بملامحه

Scanned with CamScanner

المتمرّدَةِ، وارتدت ثياباً رياضيّة قطنية خفيفةً، فاتحة اللون، شربت ماءً، وملأت قارورةً لتأخذها معها زاداً، تاركة هاتفها على السرير، وانطلقت على درب ترابيّة ضيّقة ملتوية كأفعى بين أشجار الليمون، تتجه غرباً قاصدة البحر، تجاوزت البساتين، ودخلت أرضاً شاسعة تحوي نباتات شوكيّة قصيرة وصخوراً مترامية، لقد ألفتْ تلك الطريق منذ طفولتها وبعد مدة لا بأس بها شعرت بنسائم البحر الرطبة، فتوقّفت مستريحةً، تتأمّلُ المسافةَ التي تجاوزتْهَا، شربتْ قليلاً من الماء من قارورتها، وتابعتْ جرياً حتى وصلت إلى الشاطئ، خلعتْ حذاءها الرياضي وتركته على الحصى، ونزلت تمشي حافيةَ القدمين بتثاقل على الرمل، تُلاعب موجات البحر بقدميها، تهربُ حيناً، وتعود طفلة لعوباً مغناجة أحياناً.

جمعتْ بعض القواقع، وانتصبت ترنو إلى البحر معاتبة بصوتٍ مسموعٍ: لماذا لسنا – أنا وأنتَ- أصحاباً أيّها البحر، فأنا أخافك رغم أنك تسحرني وتغريني..؟

جاءها صوت أجفلها ودون أن تستدير عرفت صاحبه..

- تبقين، كما أنت، فرساً جموحاً يصعبُ ترويضُها، وطفلةً تحبُّ البريَّةَ، متناقضة أنت، وشقيّة.

Scanned with CamScanner

التفتت إليه وبقيَتْ مكانها تضرب الرمل برجلها بتواتر بطيء، وهو يقترب منها يتأملها على مهل، تصافحا كصديقين عزيزين، وتبادلا الأسئلة التقليدية حول الصّحّة والأهل.

باغتها بسؤاله: هل أنت سعيدة يا عليا..؟

ابتسمت مجيبة:

تزوّج، وستعرف طعمَ السّعادةِ، فالزواجُ استقرارٌ.. سحبتْ يدها من يديه وسارت وهو يلحق بها، شعرت بنظراته تتفحّصُها، فتوتّرتْ، وأسرعت الخطى قليلاً، لكنه لحق بها صامتاً.

باحَ صمتُهما بالكثير من الشوقِ والأنينِ، فحدّقت في عينيه، لمحتْ غربةً أحزنتها، اقتربت منه مُتصنّعة العفويّة علّها برائحة جسده تهتدي لذاك الوطن الذي أحبّت، فزادت غربتها، وتجلّى حزنها على وجهها، لكنه قطع الصمت بسؤاله عن ابنتها:

- أهي مثلك أم صارت أجمل؟

وكشاعرة، أخذت تنهلُ من فيضِ الكلمات، وعادتْ الفرحةُ إلى وجهها فأشرقَ. لم تُحبّ في حياتها شخصاً أكثر ممّا أحبّته، إلا ولديها: شمس وكريم، لكن لم ولن تُصرّح له بذلك يوماً أما شعورها تجاه فادي فهو الأسمى.

Scanned with CamScanner

انتبهت إلى حزنه فبادرته: تزوّج!!.

إن لم يكن من أجلكَ فمن أجلِ أمّك، أنت وحيدُها، وستُسعِد قلبها بزواجك، قالت ذلك برجاءٍ كبير، وبصدق إنساني أكبر.

قال: كنت أعتقد أننا سنُسعِد قلبها يوماً ما معاً، فهي تُحبّك جداً، لكن...

قاطعته: أيها المغرور ولدنا في ربيعين من الشهر ذاته، ولكن في عامين مختلفين، فكنا كمتوازيين لا يمكن أن يلتقيا إلا بانكسار أحدهما وهذا محال، لأننا نزهر معاً، ونثمر معاً، لكنّ ثمارَنَا لا تصلح للخلط، حيث سيذوب أحدنا في الآخر، ويتماهى دون طعم، وذلك لا يناسبُ طباعَ أيّ منّا.

أنهت كلامها وتركته بهدوء لتعود إلى حذائها المرمي على الشط، التقطته وأخذت الطريق المعبّد وسارت حافية القدمين، ودون أن تنظر خلفها سألت:

- لماذا عدتَ..؟

وقالت همساً: أنت بالنسبة لي قد متَّ.

نبشتُ الآن ذاكرتي باحثة عن سببٍ أهدم به قلاعي وقصوري التي شيّدتُ، وأنا أعلم أنني لو رأيت سبباً لهدمتها، وعدت إليك

Scanned with CamScanner

حتى لو كان ذلك انتحاراً، الآن يجب أن تعود إلى أكفانك التي منها خرجت، فأنا منذ زمن دفنَكَ قررت ونسيانَكَ أعلنت.

توقفت.. لبست حذاءها.. وأخذت تركض هاربة، لا تعلم لماذا، هل هي هاربة منه أم من ضربات قلبها التي باسمه تناديه، والدموع منهمرة تتطاير على خديها.

وقفت لحظة لترتاح معلنة ندمها على ترك هاتفها في البيت، ليتها أتت به، لكانت اتصلت بأحدٍ ما يقلّها بسرعة إلى وطنها الآمن، فقد تعبتْ، واستنفذ ضجيج روحها كل طاقتها..

وقف نزار حائراً يراقبها، وقلبُهُ يلاحقها بدقّاته، وهو يتساءل: ما الذي تغيّر بنظراتها..!!

هل لأنها نضجت؟ أم حدث ما أوجعها فانكسرت..؟

هي هكذا عندما أَقتربُ من عالمها الخاص تنتفض وتهرب، مزاجيّةٌ، متمرّدَةٌ أحبُّها وأكرهُهَا.

رمى بعصبيّة سيكارته ولم يأبه ببرودة الجو، خلع ثيابه وركض رامياً بنفسه في أحضان البحر، وأخذ يسبح مبتعداً عن الشاطئ يغسل كربه منها.

وصلت مأواها منهكة الروح والقوى، ودون أن تخلع ملابسها

Scanned with CamScanner

دخلت الحمام، وقفت تحت المياه الفاترة بشرور وراحت برأسها المنخفضة تهمس: لم تعد ندبتك في قلبي هي الوحيدة التي تؤلمني، فقد أصبح لدي أخرى من لذة العيش تحرمني، وتشعرني بقُرب الأجل، آهٍ.. ليتني أستطيع مغافلة الموت.. فعندي آمال تشغلني ولحظات فرح تنتظرني.

ابتسمت من كلماتها، ورفعتْ رأسها، خلعت ثيابها الرطبة، وأكملت حمامها، وخرجت كأن مسّاً من الأمل أصابها. نعم هذا مكاني وأماني، ردّدت..

ارتدت ثوباً أسود اللون، وخرجت تجهّز فطورها، لفت انتباهها صوت سيارة زوجها تتوقف، فتح بابها وأقبل صوبها يحمل طعام الفطور بيد، وبالأخرى رزمة كتبٍ أفرحت قلبها.

بادرته: فادي هل نسيت شيئاً؟

لم تتأخر!!

لماذا عُدت؟

قال لها ضاحكاً: هل أرجع من حيث أتيت؟

حرّكت رأسها تبتسم وتقول: لا..

تابع: لقد اشتقت إليك، فقررتُ أن نتناول الفطور سوية، وعلمت بالقذائف خفت عليك فأسرعتُ لنموت معاً..

Scanned with CamScanner

- لن نموت الآن فأمامنا متّسع من الوقت وكثير من الأعمال التي لم ننجزها بعد..

قبّلها على رأسها واضعاً ما بيديه على طاولة الحديقة، هيا لنأكل. قال لها. إنه فطورك المفضّل ليوم الجمعة.

قطبت حاجبيها وقالت: لكن اليوم ليس عطلة أو يوم جمعة..!!

قال: أعلم يا حبيبتي لكن قررت أن أقضي اليوم بصحبتك، ولن أزعجك، سأعمل بقربك في الحقل. وقد أتيت لك ببعض الكتب وقطع الشوكولا.

غمزته بشقاوة وماذا تريد..؟

ضمّها إلى صدره بشوق محب، وقال: فقط أن تكوني سعيدة. بالأمس كنتِ رائعة.

خجلت كطفلة وقالت:

- حقّاً بوجودك حياتي أسهل وأجمل..

وأضافت: صوتك الدافئ يطوقني كأنه عناق أزلي، يسحرني، يغمرني بحنان أيها الصديق الحبيب: ولدنا في ربيعين في اليوم ذاته في شهرين مختلفين بفارق ثلاث سنوات، فكنا موسمين بطبعين

Scanned with CamScanner

يتممان بعضهما بعضاً أنت الثلج وأنا النار، تُطفئ ثوراتي، وتُبرِّد جنون حالاتي، وأنا أذيبُ جليد زمانك، وأبعثرُ رتابة أيامك، فتتناغم ألحاننا، ونتماذج بطعمين مختلفين، نتجاذبُ حيناً ونتنافرُ أحياناً. نَصمتُ ونراقبُ فرصةً لنُدوزن آلاتنا، ونعيدَ من جديد عزف أنغامنا.

تابعا تناول طعامهما وهما يتبادلان الابتسامات وبعض اللُقيمات..

كسر الصمت بينهما بعد تفحصه لها، إذ قال:

- لماذا تصرخين يا حبيبتي؟ ما الذي يزعجك..!

نظرتْ إليه بدهشةِ سارقٍ تفاجأ، وردت قائلة: ما بك؟ أنا لم أتكلم مطلقاً.

- كلُّ ما فيك يصرخُ، عيناك عصفوران قلقان لا يهدآن، واهتزازُ رجلك المتواصل أقلقني، فأخرجني عن صمتي.

نهض ليجلس بجانبها محتضناً إياها: ما بكِ قولي..؟

وبصدق طفلة اعتادت مُصارحته قالت:

- اليوم التقيت نزار على الشاطئ.

- هل علم بمرضك..؟

Scanned with CamScanner

قاطعته لا.. لكن لم أكن أتوقع رؤيته وحسب. قالت ذلك ونهضت قائلة سأصنع لك القهوة ما رأيك..؟

وافق بإيماءة من رأسه ترافقها ابتسامة تَفهّم وقال:

ـ عادة أنا من يصنع القهوة إلا يوم الجمعة..

ابتسمتْ: سأعتبر اليوم عطلة وجمعة! كما فعلت أنت..

وغابت فترة وعندما رجعت وضعت صينية القهوة أمامه ليصبّها ملأ فنجانها أولاً لتحصل على وافر الرغوة وضحك قائلاً:

- مَن يحبُّ الزبد خياليٌّ ما رأيك..؟

- أنا حالمةٌ ولستُ خياليّةً..

- ما الفرق يا حالمة..؟

- الأحلام نستطيع تحويلها إلى حقيقة، ويقال: حيّ من يلامس طيف حلمه.. أما الخيالُ فوهمٌ مهما سعينا لا يمكن الإمساك به..

وأضافت: أنسيتَ!

أنني بنت من بناتِ القمر..

أعشق الحريَّة ولي طقوسٌ سحرية..

أموت وأحيا بالسهر

Scanned with CamScanner

وعندما تشرقُ الشمسُ أصبحُ جنيّة نور

أنهض بكل حبور لأتجانس

مع الواقع بصبر جَسور..

تنمو أجنحةُ الأحلام يا فادي من الشعورِ بالحبّ

من كسرِ قوانين البشر

من التمتع بنورِ الشمسِ وهطول المطر.

من الشرود وقت مراقبةِ القمر.. من النهوض بسرعة للرقص عند سماع الموسيقى

ونثر الفكر فنحلّق في فضاء الروح كطيور

تعشق الهجر..

- أنتِ حلمي المحقق قالها ضاحكاً.

- وأنتَ مخادع.

- مخادع.؟! كررها باستنكار.

- كيف أقنعتني بالزواج منك والاستمرار إلى الآن. كان والدي دائماً يقول لي لن تبقي بصحبة رجل أكثر من شهور سيعيدك إليّ مستنجداً..

Scanned with CamScanner

بسط يديه مازحاً: لا مفرّ سأتحمل طول العمر نتيجة اختياري هذا قدري وقراري وغادر باتجاه الحديقة مختفياً بين الأشجار..

تأملته تتذكر ما كتبتْ يوماً في دفتر يومياتها: بعدما أحسست بجسدي يبردُ، وروحي على وشك أن تخرج من جسم مهترئ بسبب سمّ قاتل دخله دون علمي، لكني شربته بإرادتي باحثة عمّا أظنّه سعادتي وفي لحظة عرفت أنه حتفي وأن السمّ تملّك منّي، فلم ينفع العلاج معي وآمنت باستحالة النجاة لكن شعرت بقوة خفيّة تحضّني على العلاج والشفاء السريع، وكان العلاج هو الصدق والوفاء من شخص شرب سُمّي فحوّله إلى دواءٍ لكلينا، فبدأ جسدي يبرأ، وقلبي ينقى وروحي تسمو.

ـ منذ ما يقارب العشر سنوات كان آخر لقاء جمعني مع نزار، كنت برفقة ابنتي نمشي على الشاطئ، هي ترتدي لباس السباحة الذي يبرز تبدلات جسمها الممشوق كراقصة باليه منحوتة من الطين الأسمر، وأنا أرتدي ثوباً قطنياً أزرق اللون، بلون عمق البحر، ومن دون حمّالة صدر، أرفع شعري المصبوغ بالأحمر كذيل حصان طويل..

احْتضن نزار ابنتي مقبّلاً وجنتيها، ولكنه سلّم علي دون مصافحة قائلاً: ابنتك خرجتْ من البحر كحوريّةٍ بشعرها الخرنوبي

Scanned with CamScanner

الطويلِ المنفلتِ، رائعةُ الجمالِ كأمها، واجتاحني بنظراته التي أربكتني فقلتُ ممازحةً لأُداري انفعالي: أورثتها كلَّ شيء حتى طولها الممشوق، وضحكت.

ابتسم بخبثٍ متأملاً جسدي المكتنز وقال: رائعة أنت بكلِّ كنوزِكِ، غامزاً ابنتي شمس وهو يقول لها: ألا توافقين يا ابنتها، أن أمّك تضجّ جمالاً.. احتضنتني ابنتي شمس مبتسمة، وظهر فارق الطول بيننا، فضحكنا ثلاثتنا.

غادر نزار على صوت قهقهاتنا ملوّحاً لـ شمس بقبلاتٍ عدّة، ولي بغمزةٍ وتحيّة إصبعين، وابتعد عنّا كقبطان مشاكس: انتبها من وحوشِ البحرِ التي تخطف أجمل الحوريّات..

كانت تلك الإجازة الأخيرة التي أقضيها في القرية وقد عدنا قبلَ نهايتِهَا بسبب ألمٍ في صدري جرّاءَ تكتّلاتٍ لمستُها في الثدي الأيسر، وبعض الأعراض التي عانيت منها، ما أقلق زوجي فادي، وزاد من إصراره على العودة بأقصى سرعة، لزيارة الطبيب وإجراء الفحوصات الطبية اللازمة بعد حالات الإغماء التي كانت تصيبني، وتُشعره بالخوف إلى درجة الرّعب.

حينها بدأتْ رحلةُ المعاناة، بانهيارِ حصونِ الرّاحة والاستقرار في بيتي لمدة وجيزة، قال الطبيب بعد الفحص الدقيق والصور

Scanned with CamScanner

الشعاعية التي أجريت للكبد، ولجهاز الهضم، وتحليل الخزعات التي أخذت من الدرنات التي تشكلت في الثدي، ونمت فيه؛ لم ينتشر المرض في باقي الجسم وهي علامة جيّدة كما أكّد الطبيب أنه لا بدّ من استئصال الثدي الأيسر كاملاً، بسبب تلك الدرنات غير الحميدة ووضّح أن هناك كتلا حميدة قد تتحوّل..

استمعتُ لقوله بكلّ اتزانٍ وهدوءٍ وأنا أراقبُ فادي وهو على وشكِ الانهيار.

سألتُ عن الخطواتِ التاليةِ للعلاج، واستفسرتُ عن جميع التطوراتِ اللاحقةِ، وقرّرتُ إجراءَ العمليّةِ بأسرع وقت ممكن.

تعاون فادي والطبيب بالتنسيق مع المستشفى، بعد إتمام التحاليل والإجراءات اللازمة على تحديد موعد إجراءِ العمليةِ.

كان طلبي الوحيدُ من الجميع أن يكون الحدثُ أمراً شخصياً، لا أريد حضورَ أهلي، ولا أهلَ زوجي، وطلبت عدم إخبارهم بالأمر، والانقطاع عنهم خلال مدة العملية وفترة النقاهة وما بعدها حتى أتجاوز مرحلة العلاج كاملة، مكتفية بفادي عوناً لي وأنا أعيش مرحلة فقدي وحزني، وتقلباتِ مزاجي بعيدة عن الشفقة، وعن لهفة الأحبة وعطفهم.

Scanned with CamScanner

- تمّتْ العملية على أحسن وجه، باستئصال الثدي الأيسر كاملاً، كما تمّ تجريف ذلك الجزء من جسدي وقد وصل الأمر إلى ما تحت الإبط مع الغدد كاملة.

تركتْ الجراحةُ ندبةً أوجعتْ عيني كما أوجعتْ جسدي، وبَقيتْ على أثرها يدي اليسرى في حالةِ تورمٍ وشبه شلل، لا أستطيع تحريكها بمفردي، فكان على فادي أن يساعدني بممارسة التمارين التي طلب الطبيب مني الالتزام بالقيام بها، إضافة إلى ارتداء ضماد خاص، لمدة سنة كاملة.

مضى على العملية زمن طويل، وما زالت تؤلمُني أحياناً، وتعيقُ بعضَ أعمالي، ما استدعى إحضار من يساعدني في أعمال المنزل، لتأتي سعاد قريبة فادي من بعيد، لتنضمّ إلى أسرتنا الصغيرة، وتعيش غالب الأيام معنا كفردٍ من الأسرة.

هي – سعاد – فتاةٌ ريفيّةٌ لم تتابع دراستَها بسببِ الأحوالِ الماديةِ المترديّةِ بعد إصابةِ أبيها في أثناءِ تأدية واجبِهِ الوطني، ما أرغمه على البقاء في البيت من دون عملٍ، حالُهُ حالُ الكثيرين من معيلي الأسرِ والشبابِ أيام الحرب.. هي حالمة فضوليّةٌ كثيرةُ الأسئلةِ بأدبٍ، وتَعلمُ متى تسأل، ولم أكن أنزعج منها بل كان يسعدني تعلُّمها السريع لفنون الطبخ وأعمال المنزل وبقية أمور الحياة الأخرى.

Scanned with CamScanner

ـ بعد عشرين يوماً من إجراء العملية كانَ لابدَّ من العلاج الكيميائيّ الذي كسرَ إرادتي في البداية، حيث اختارَ الطبيبُ تقسيمَهُ إلى ستِّ جرعات، في كلِّ عشرين يوماً جرعةً وكنت أرى ذلك عقوبةً لا بّد منها.

إذ تُذوّب المادة في قارورة مصل، وتُعطى في الوريد، لتتوزَّعَ على كافّةِ أنحاءِ الجسم، فتقتُلُ الخلايا الخبيثةِ الموجودةِ، والتي قد تتشكّلُ، الأمرُ الذي كانَ يهدفُ إلى الوقاية، وأعتقد أنّها أصعبُ من سكراتِ الموتِ.

ومع كلِّ جرعةٍ، كانتْ تتكرَّرُ الأعراضُ نفسُهَا، تلكَ التي عذّبَتْ روحي وجسدي، ويعودُ تأثيرُ أوّلِ يومٍ أخذتُ فيه العلاجَ الكيماوي وعذاباته، أحسُّ بضيق شديد وشعورٍ حادّ بالإقياءِ، رغمَ أنّني لمْ أكنْ أتناولُ أيَّ شيءٍ قبلَ العلاجِ، فلا قابليَّة لديَّ لأيّ نوع من طعامٍ أو شرابٍ، والوهنُ القاتلُ يحطّمُ كياني، فتتوهُ روحي بين الوجع والإصرارِ في مقابلِ الضعفِ ورغبةِ المفارقةِ التي تجعلني على وشكِ الاستسلام.

تستمرُّ حالتي هذه أياماً، بعدها تنفتح شهيتي للطعامِ، لكني كنتُ محكومةً بحميةٍ قاسيةٍ، تقتصر على بعض المأكولات كالتمرِ والخضارِ والفواكهِ وأهمها الموز ما جعلني أقرف من تلك الأصناف،

Scanned with CamScanner

وتحديداً الموز، حيث أصبحت رائحتُهُ تقزّزني ومنظرُهُ ينفرني. كانت أياماً عصيبة استمرت ما يقاربُ الستة أشهر اختبرت فيها حبَّ فادي وجَلدهُ وصبرَ شمس وحسَّها بالمسؤولية واكتشفتُ في ابنتي قوةً كانت خفيَّةً ووعياً يفوقُ عمرَهَا، حينها أدركت أن المحنُ هي التي تُنضجُ الإنسانَ، وأن المحبّة تبعثُ للروح الأمل مصحوباً برجاء البقاء، ومّما زاد من عزيمتي على المقاومة طيفُ انكسارٍ في عينيّ شمس رغم ما تبديهِ من قوّةٍ وما كان يصيبني أنا من اكتئابٍ ووجع، من خسارتي لأجمل جزءٍ أعتزُّ به، الجزء الذي يُعبِّرُ عن أنوثتي، وعذاب شعوري المصحوب بقرب الأجل، لكنَّ خيطَ روحي كان مثل حبلِ سرَّةٍ يربطني بكريم، فيحثني على البقاء لأجله كونه نقطة ضعفي وكثرة المحبّة والاهتمام من فادي وشمس وهبني القدرة على الثبات .

ـ حملتُ بشمس بعد زواجي بشهرين فقط، وسعيتُ جاهدة لذلك، كانت فرحتي لا توصف، عندما جاء فادي يحملُ جهازَ اختبارِ الحملِ، وبلغتْ سعادتي كلَّ حدٍّ حين اكتشفنا النتيجة. رغم كلّ ما عانيته من تعبٍ طيلة ثمانية أشهر، إذ ترك فادي أعماله والتزم معي لسوءِ وضعي الصّحيّ وتفاقمِهِ، فقد فرض الطبيبُ ضرورةَ بقائي مستلقيةً في السرير طيلة أشهرِ الحملِ، لا أنهضُ إلّا للضرورةِ القصوى، وحتى الاستحمام يجب ألا يتجاوز عشرَ دقائقَ.

Scanned with CamScanner

أتى فادي بخادمةٍ تقومُ بجميع أعمالِ المنزلِ، أما هو فقد خصّصَ كلَّ وقتِهِ لرعايتي فقط. كم كانَ نبيلاً معي وجميلاً أمازحه حيناً فأقول:

- اذهب إلى ملهى ليلي، أنا أسمحُ لكَ بذلكَ.. لكنَّهُ كانَ يجيبُ بشقاوة:

- لا.. سأنتظرك، وسأثأر منك فيما بعد.

أشعرني بحنانهِ وشوقِهِ وانجذابِهِ متجاهلاً التبدّلَ الرهيبَ في شكلي، إذ تورمَتْ قدماي، وازداد وزني رغمَ الحميةِ المفروضةِ بسببِ ارتفاعِ السكّرِ الحملي.

كنا نراقب نبض صغيرتنا وتحركاتها كأننا نحمل بها معاً.

نتسلى بلعبِ الورقِ طوال الليلِ ونامُ نهاراً وأنا كالعادة في حالاتي الخاصة أعزلُ نفسي مع حبيبي عن البشر وأعتكف في أثناءِ آلامي وأفراحي فقطعتُ أغلبَ علاقاتي مكتفية بفادي وصديقين مشتركين بيننا..

وفي ليلةٍ صيفيّةٍ مزدحمةٍ، وسهرةٍ ضمّتْ أصدقاء جاؤوا لزيارتي صدفة، ودون سابق إنذار، ظهرت علائم الولادة بخلاف الموعد الذي حدّدَهُ الطبيبُ في أواخر تموز، لتشرقَ "شمس" في نهايةِ حزيران، دونَ مغصٍ، بما يسمى «طلق بارد» وبلا أوجاع قوية..

Scanned with CamScanner

نُقلتُ إلى المشفى، وكانت ولادةً سهلةً رغم وضع الجنينِ المقلوبِ، وارتفاعِ السكّرِ الحمليّ، والحالةِ التي كانت ترافقني طيلةَ فترةِ الحملِ من اختلاطِ شواردَ، قال الطبيبُ إن أسبابَها نفسيّةٌ قد تكونُ خوفاً من مسؤولية الحملِ، واضطراباتُ النومِ قد تُزيدها.

تيسّرت الولادةُ وكلُّ الأمورِ الأخرى، وأشرقتْ "شمس" ليلاً جميلة بصحّةٍ جيدةٍ، ووزن أربعة كيلو غرامات ما اضطر الطبيبَ لإجراءِ خزعٍ آلمني كثيراً حتى بعد مضيّ الأسبوعِ الرابع على الولادة، وهذا ما انعكس سلبياً على علاقتي بفادي فيما بعد، إذ احتاج شهوراً عدّة لتعزيزِ ثقتي به وتجاوزِ الأمرِ.

عاد فادي إلى عمله وملأت "شمس" حياتنا حبّاً وجمالاً واستقراراً وقرّرَ الاكتفاء بها رغم إصراري بشتّى السبلِ على ضرورة وجودِ طفلٍ آخرَ، ألححت قائلة: من الضروري أن يكون لشمس سندٌ في المستقبل فتاة أو ولد.. لا وقت لدينا يا فادي فنحن في الثلاثينات.

كلّ ذلكَ كانَ من دونِ نتيجة.

مضتْ ثلاثُ سنواتٍ ونحنُ نناقشُ الأمرَ، و"شمس" تضيء كوننا دلالاً ونوراً، وفادي يكرّر كلامه: سنكتفي بها كنزاً لحياتنا ولن ننجب إلا "شمس". وبقينا على هذه الحال إلى أن جاء يوم اعترضتُ فيه بانزعاج كبير، فصرخَ في وجهي: هل نسيتِ أوجاعَكِ؟

Scanned with CamScanner

هل تناسيتِ الظروفَ الخطيرةَ التي مررتِ بها، كدتُ أخسركِ، طيلة فترة الحمل وأنت مستلقية في السرير، وأعراض السكّر المرعبة تلاحقك، ثم هل نسيتِ ما تلا الولادة من أوجاعٍ ومحنٍ؟ لا.. لا، لن نغامر أبداً يا عليا.. "شمس" تكفينا.. فَصمتُّ حزينة.

نتابعُ نمو "شمس" يومياً، نراقبُ حركاتِها ونلاحقُهَا بالصورِ، فادي يعشقُ توثيقَ اللحظاتِ، أما أنا فأحبُّ أنْ أعيشَهَا وأستمتعَ بها. جميعُ معارفِنَا يقولون إنَّ هذه الفتاة سلبت عقل فادي. لا تنامُ إلا على صدرِهِ وبينَ ذراعيه وكلُّ طلباتها عنده بمثابة أوامر.

في يوم ميلادها الثالثِ كانت طفلة رائعة الجمال كأطفال الإعلانات مكتنزةً ساحرةً، عندما تضحكُ ترتسمُ غمّازات خدّيها، فينبثقُ النورُ في قلبينا أنا وفادي. في هذا اليوم اتخذتُ قراري بضرورةِ خداعِ فادي، وصممتُ على محاولةِ الحملِ دونَ علمِهِ، وبعد أيام عدة زرتُ الطبيبَ بمفردي، لمراقبة وضعي الصحي وتحديد الأيام المناسبة من كل شهر للحمل.

تمَّ الحملُ بعد سبعةِ أشهرٍ من زيارتي الأولى للطبيب، ولم أُخبرْ فادي إلّا بعدَ أنْ تأكدتُ ومضى على ذلك عدة أسابيع، وعندما اعترفتُ له أصابتني الحيرةُ من تعابيره المختلطةِ بين متفاجئ وخائفٍ، فرحٍ ومتوجّسٍ، حملني ودارَ بي، وراح يقبّلني كيفما شاء

Scanned with CamScanner

و"شمس" تدور حولنا، وضعني بهدوء على الأرض، ووجّه كلامه لشمس هل تريدين أخاً أم أختاً يا أميرتي..!

قالت بغنجٍ ودلالٍ وتَصميمٍ:

أريد بنتاً ألعبُ معها.

صرخ فادي:

وأنا أيضاً أريد بنتاً تشبه شمس ونسمّيها قمر.

اعترضتُ ضاحكةً: أريدُ ولداً.. أصلاً أنا أستغربُ كيفَ أنني أنجبتُ بنتاً، وغمزتُ أشاكسُهُما.

كانت عيونُ فادي تنطقُ بكلِّ معاني الحبِّ والسعادةِ بنظراتها وبريقها الخاصّ.

عندها تيقنتُ أن رغبة فادي بإنجابِ ولدٍ آخرَ كانت تفوقُ رغبتي، لكنّ قلقَهُ وخوفَهُ عليّ هو الذي جعلَ ردَّةَ فعله بالرفضِ قطعيّة.

ما عانيتُ من أعراضِ الحملِ أبداً، لا وحامٍ ولا أيّة مضاعفات، كما كانَ الأمرُ عندما حملتُ بشمس، بل على العكس، كنت كالفراشةِ خفيفةً أتنقّل راقصةً، فزادت حيويتي دون زيادة كبيرة في الوزن، وبدأ الصراع على اسم المولود الذكر قبل قدومه، فأقول ضاحكة:

Scanned with CamScanner

" أساميناشو تعبوا أهلينا تـ لاقوها

شو افتكروا فينا .." على قولة فيروز، كلمات الشاعر جوزيف حرب.

ونبدأ بالبحثِ من جديد عن أسماءَ غيرِ مألوفةٍ متجاهلين أنّ الاسم يأتي مرافقاً لصاحبه ويشابهه.

مضت الأيّامُ كالحلمِ حتى إنني لم أشبعْ من متعةِ كوني حاملاً أبداً، ولم أتلذّذ بذلك، في بداية آب، ذاك الشهر الصريح بشمسِهِ الحارّةِ، وسمائِهِ الزرقاءِ الصافيةِ، كنّا على الشاطئ نلهو، حيث بدأت أعراضُ الولادة وأنا أرمي كرة إلى طفل يلعب بالرمل، لا أعرفه، فقط أحببت أن ألاعبه.

ذهبنا إلى المشفى مسرعين، حالَ وصولِنَا جاء "كريم" بسلام وبساطة، دونَ وجعٍ، كنسمة لطيفة تنعش القلب، ووجه مشرق، يزن ثلاثة كيلوغرامات وطوله اثنان وخمسون سنتمتراً.

ساعاتٌ قليلة فقط قضيناها في المستشفى، عُدنا بعدها إلى البيت، كنت قد لبست ثوباً من الحرير الأزرق، فاتح اللون اشتريته لاستقبال أميري الصغير، استقبلتنا "شمس" بفارغِ الصبرِ تتشوقُ لمشاهدة لعبتها الجديدة، وبحنانٍ فائقٍ قبلتْ ثيابه وتلمسَتْ يديهِ كأنهما عصفوران صغيران تخشى أن تؤذيهما، يطفو من عينيها

Scanned with CamScanner

حبٌّ ساحرٌ كعيني أمٍّ عطوفٍ تعبّر عن سعادتها بالرقص حيناً، وبالأسئلة أحياناً عما يأكلُ ويشربُ.

لماذا هو صغير جداً ..!!

متى يكبر؟

يجيبها فادي بصبر وحبّ شديدين..

ـ الأمرُ الذي تهيأتُ لهُ جيداً، وتخيلتُهُ مراراً هو شكلي خلال الجرعات، إذ وضّح لي الطبيبُ أنَّهُ إن لم يتساقط الشعرُ فالجرعاتُ ستكونُ بلا فائدةٍ. وكرّر يعني: تثبيت فائدة الجرعة من خلال تساقط الشعر ونصحني بقص شعري لأتقبل الأمر بشكل أسهل.

قررتُ قبيل أخذ الجرعةِ الأولى قصَّ شعري الذي أُحبُّ، حزّ هذا بنفسي كثيراً، وآلمني فقدي المتتالي للأشياء التي أُحبّها.

تذكرتُ كلامَ والدي كانَ يقولُ لي دائماً رغمَ جمالِ شعركِ يا عليا فإنَّ الشعرَ القصيرَ جداً يناسبُكِ، وكنا نضحك لتلميحه إلى أن تصرفاتي صبيانيّة، وفي مواقفي رجولة تفوق ما يملكه الكثير من الرجال، وكان والدي يتابع ويقول في حديثه إنَّ الشعرَ القصيرَ يناسبُ وجهي الممتلئ، وأنا الآن أشكر الله على غروبه قبل مرضي حتى لا يشعر بالحزن والقهر على حالتي.

Scanned with CamScanner

وفقده قبل سنين جعل الموت يتضاءل في نفسي فلا أستغرب فقدَ أيّاً كان بعده وتلاشت رهبة الموت وصغر الحزن على الأموات في داخلي منذ وفاته..

بدأتُ أشعرُ بعد ثلاثة أسابيع من أخذ الجرعة الأولى بتنميل في جلدة الرأس، وصرت ألاحظ شعراً على وسادتي أكثر من المألوف، وعندما أخبرتُ الطبيبَ بذلك، نصحني باستخدام فرشاة ناعمة للتمشيط، ونبهني إلى عدمِ التعرض لأشعة الشمسِ القويّةِ، وأكّدَ على ضرورة الاستحمام بشامبوهات طبيعية، كالشامبوهات الخاصة بالأطفال، وطلب مني الحذرَ قدرَ الإمكانِ من التمادي بالحزنِ وتجنّبِ الاكتئاب..

استيقظتُ باكراً قبل الأولادِ كالمعتادِ، وطلبتُ من فادي حلاقةَ شعري، فانزعج كثيراً، احتضنني مرتبكاً بصمت.

مازحته أصطنع المرح قائلة: لا تتهربْ بهذه الحركات! هيّا.. قمْ بذلكَ حالاً! فأنا لا أريدُ أنْ أكونَ كالقطة يتساقط وبري أينما نمتُ.

تناول فادي آلة الحلاقة متردداً، وبدأ الحلاقة بيدين ترتجفان وعينين تبكيان. بعد خروجي من الحمّام وضعت كوفية ناعمة من القطن بيضاء اللون وعقدتها بشكل أنثوي من الخلف ولبست ثوباً

Scanned with CamScanner

أزرق اللون فضفاضاً، كان بلون السماء. جلستُ في الحديقةِ أتناولُ الفواكهَ مع التمرِ، محاولةً أن أظهر اللامبالاة والقوة بالسخرية ورمي النكات، لكن! كانَ هناك شيء ما يمزّقُ أحشائي ألماً وغصّة، في ذلك الحين لو نظر فادي إلى عينيّ مباشرة لانهرتُ باكيةً صارخةً، لكنه تهرَّب بحجة تحضير الفطورِ للصغارِ، وتنظيف الشعر المحلوق المتناثر على الأرض حتى لا يرياه..

رفعت صوتي بحذرٍ وقلت: فادي ..

يجبُ أنْ نخبرَ الأولادَ بالتطوراتِ.. قلتها بحزم.

خرجتْ "شمس" تمسكُ يدَ كريمٍ وما هذه التطورات..؟

قلت لها دون أن أنظر إليهما: سيتساقط كل الشعر عن جسمي، حواجبي والرموش، وسأصبح صلعاء.

سألتْ ببراءة الأطفال: هل ستتألمين؟

- لا يا حبيبتي، أجبتُ بلهفةٍ وسينبت بعد أقل من سنة شعري من جديد بقوة أكثر، المهم ألّا يزعجكم منظري.

- أنت جميلة ماما، قالتها بثقة.

نزعت الكوفية بطريقة عصبية وقلتُ: انظروا إليّ وتأملوني حتى تعتادوا على شكلي ولن أضع أي غطاء على رأسي إلا نادراً،

Scanned with CamScanner

ومن يشعر بأنه لن يتحمل تغيراتي أبعثه إلى مكان آخر حتى تنتهي فترة علاجي، ولن أستقبل أحداً في البيت، أنتم ستزورون الأقارب دون الحديث عني.

تدخّل فادي: عليا ما بك أنت رائعة، ونحن نعتزُّ بجمالِكِ، وقوّتِكِ، قال ذلك وهو يطرف بعينه أن أنتبه إلى كريم.

آلمتني ملامحه المختلطة بين خوف وحزن ومفاجأة من شكلي ليتمسك بأخته.

قالت شمس: سنبقى معاً جميعاً تحتضن كريم.

أكمل فادي: سنتجاوزُ الأمرَ.. سنةٌ وتمضي بسرعةٍ.. نحن أسرةٌ قويةٌ، يضمّ الطفلين إلى صدره بودّ، وتابع كلامه: يجمعُنا الحبُّ والإيمانُ، وهناك الكثير الكثير من الأحلامِ التي يجبُ تحقيقها..

أليس كذلك يا أولادي الشجعان!

يسحبهما الى الداخل ليكمل تحضير الطعام..

ملأ الأولادُ أوقاتهم: "كريم" انتسبَ إلى نادٍ رياضي لكرة القدم، يذهبُ للتمرين بشكلٍ منتظمٍ، و"شمس" أرادتْ أنْ تتعلمَ العزفَ على الغيتارِ، وقررتْ كذلك تقويةَ لغتها الانكليزية، وبذلك عاد الاستقرار والهدوء إلى البيت بشكل رتيبٍ، وشبه طبيعي تتخلله موجات من التوتر يُصاحبُ كلَّ موعدِ جرعةٍ.

Scanned with CamScanner

مضتْ مرحلةُ العلاجِ الكيميائي، وانقضتْ الشهورُ الستّةُ، وبدأ شعري بالنمو بملمسٍ غريبٍ وطبيعةٍ تختلفُ عمّا كان سابقاً حتى لونه بات فاتحاً وزاد عدد الشعيرات البيض فيه.

قال الطبيبُ: سنبدأ بالمرحلة التالية (علاج الأشعة) ستكونُ بشكلٍ يومي على مدارِ الشهرِ، وينتهي الأمرُ ويستقرُّ وضعُكِ وبعدها تتباعد فترات زيارتك لي.

قلت: ما أسعدني..!

وتابعت: لقد مللت العلاج وزيارة الأطباء أحتاج فعلاً إلى استراحة طويلة.

لا يصقلُ الشخصيةَ إلّا الألمُ، وقربُ الأجل، تمتم فادي مخففاً عنّي العبء.

اضاف: عند ألمِ الروحِ والفقدِ نستغلُّ كلَّ لحظةٍ من الحياة ونستسخفُ الصغائرَ والصراعاتِ، نهجرُ حدّةَ اللسانِ كما نستخفُّ بالمجاملاتِ، أليست هذه هي كلماتك دائماً...

أومأت بنعم.

- رغم قسوةِ المرحلةِ السابقةِ فقد كان لها محاسنُ كثيرةٌ، إذ فتحَتْ أبواباً للحبِّ جديدةً، وجعلتْ علاقتي مع فادي أنضجَ وأجملَ، كما أعطتْ لشمس خبرةً وعبرةً.

Scanned with CamScanner

أما "كريم" فكان الحلقةَ الأضعفَ بحبِّهِ وتفانيهِ على صغرِ سنِّهِ، فمنذ ولادته وهو كالنسمةِ تنعشُ مَن تمرَّ به ويزهرُ المكانُ الذي يحتويه، بالفرح تُشع عيناه، وبالسحرِ والجاذبيةِ، ورغم وسعهما واتّساعِ حدقتيهما فهما مشاكستان، يفيضُ الحنانُ منهما، يملأن وجهَهُ الأبيضَ.. ووجنتاه مزهرتان دائماً، لديه كاريزما جذّابة تَهب الناظرَ إليه الثقةَ دونَ سببٍ، بلغ من العمر ثلاثة عشر ربيعاً، وإلى الآن، عندما لا يستطيعُ التعبيرَ عما في داخله يبكي، فيأسرُ قلبي ويستعطفُ مَنْ حوله.

هو ضعفي و"شمس" قوّتي، معاً هما فرحتي وثمارُ جنتي، عندما ينادي أحدُهما "ماما" أشعر بدفء يشيعُ بكل أوصالي وجسدي ينبض بقوة، فأغمضُ عينيَّ مستمتعةً بعذوبةِ الصوتِ الرائع، يعتريني شعور بالتماهي كتغلغل المطر إلى جوف الأرض، موزِّعاً الحياةَ على كائناتها، فأنمو كزهرة تفوحُ عطراً وبهاء.

- ليلٌ طويلٌ أقلقَ راحتي، وصوتٌ قديمٌ من أعماقِ ذاتي يصرخُ، أشعرُ بفراغٍ أسودَ يملأ ذاكرتي، هو فراغٌ.. دائمُ الحضورِ يحيّرني، بل يخيفُني، إذ يجعل حواسّي في فوضى عارمةٍ، عابراً بي غياهبَ الذكرياتِ إلى أماكنَ هجرتُها عمداً منذ سنينٍ، محطّمَةً جميعَ جُسورِ التواصلِ، وهكذا أطفأتُ كلَّ بصيصِ نورٍ فيها، فبقيتْ

Scanned with CamScanner

حالكة الظلمة بأشباحٍ مترقبةٍ تنتظرُ لحظة ضعفٍ لتنبثقَ وتشتتَ استقراري وتزلزلَ أركاني.

نهضت صباحاً ولديّ إحساسٌ غريبٌ، شيء ما سيحدثُ، أمرٌ ما سيقعُ، غادر فادي باكراً، وكما بداية كلِّ أسبوعٍ، محمّلاً بالأطعمة التي أعددتُها لشمس وكريم، مُقبّلاً وجنتي، وواعداً بالعودة سريعاً إذْ لاحظَ توتري.

لم تستطع القراءةُ تصفية ذهني وانشغالي عن ضجيج روحي، تصفَّحْتُ هاتفي دونَ تركيزٍ، رميته وخرجت على صوت سيّارةٍ تتوقفُ، فُتحَ بابُها بسرعة، وتَرجّل نزار بمظهرٍ غريبٍ يَدلُّ على أنّهُ كان يتناولُ مشروباتٍ روحيّة، تقدم نحوي ..احتضنني بقوّةٍ من يريد احتوائي وإدخالي إلى قلبه، أوجعني لدرجةٍ شعرتُ أنَّهُ سيحطمُ أضلعي، حابساً يديّ على جانبي، يتنفسني دون قُبَلٍ، مُبللاً رأسي ووجهي بدموعٍ لم أستطعْ أن أُميّز أهي دموعي أم دموعُهُ تلك التي أتذوق ملوحتها.

لم أبالِ بآلامي، غبتُ لحظةً ورحتُ أتأرجحُ بين لحظاتِ الماضي، أتنشّقُ عبقَ السيجار المرِّ ممزوجاً برائحة المشروب العالق بأنفاسه وثيابه، مختلطاً برائحة الغابات البريّة التي كانت تغويني، وتفتح مسامات العشق، فتكويني وتبدد أمانيّ، وتجعلني على شفيرِ الانهيارِ.

Scanned with CamScanner

ولكي أتخلصَ من ضعفي حاولتُ التملّصَ من مدارِهِ.

دفعتُهُ منتفضةً، وبصعوبة تحررتُ من بين يديه، ومن سحرِ انجذابي إليه، دون أن أعلمَ كم بقينا متلاصقين، لحظة أم أزلاً وما زلنا.

أذابني الحنينُ لزمن افتقدته منذ سنين، أحسستُ أنّي في طورِ ضعفٍ، أعاني عن واقعي غياباً، تجنبتُ النظرَ إليه خوفاً من أن يرى في عينيَّ ما أكنُّهُ له، جلسنا حائرين صامتين، لم ينظر في وجهي أو حتى صوبي كان هائماً بحزنه..

ينطق كالمنوّم:

لو كنتُ أنا المريض، لكنتِ علاجي وما قبلتُ معيناً وباعثاً لأمل شفائي إلا أنتِ، لكنكِ يا حبيبةُ قتلتني في قلبك من سنين بإقصائي..

ألم ترتو بعدُ من عقابي..؟ أضاف.

ونظر مباشرة في عينيّ بتحنان وتابع: آه يا عليا خسرتك واستحقك فادي فكنتِ شقائي.

ارتجفَ قلبي وخبا نبضي، أردتُ أن أرتويَ منه فأقبّله وأضربُهُ وأبكي فراقي لهُ.. أتنفسُ عبَقَهُ، وأعترفُ لهُ باشتياقي لكن فعلت عكس ما أردت.

Scanned with CamScanner

نهضت فجأة قائلة: سأصنع القهوة علّك تصحو من سكرتك، فتعود للواقع، وتوجهت إلى الداخل دون أن أنتظر ردّه.

وقبل أن يَغلي الماءُ سمعتُ صوتَ سيارتِهِ تغادرُ.

ركضتُ ألحقُ بِهِ، كان قد ابتعدَ تاركاً خلفَهُ صوتَ العجلاتِ التي عبَّرَتْ عن سخطه مغادراً دون أن ينظرَ خلفه، أو ينطِقَ بكلمةِ وداعٍ.

جلستُ أتحسسُ صدري ليهدأ قلبي، أتذكّرُ كلماتِهِ فيما مضى وهو يضحك بثقة حدّ الغرور.

لا تكابري..

عيناكِ بحبّي تفيضان..

بدفءِ أحضاني تستنجدان..

وِصالي تطلبان..

فنونَ عشقي تنشدان..

من الحمق يا حبيبة ألا نرتوي

فنصبح أمام الله بالنعمة جاحدان.

تبجُّحُهُ كان الشعرة التي قصمت ظهر علاقتنا فكتبت في مذكراتي ما قررت:

Scanned with CamScanner

" ثقتُكَ بضعفي تجاهَكَ جعلتكَ تعتقدُ أنك تمتلكُني بكلّ جوارحي، فتتذوّق أطايبَ الدنيا وتعودُ لتقطفَ ثماري، وتُنعم بعذريّة شفاهي، لا لنْ أعيشَ مع رجل ذي خبرةٍ أينما أقبّلُهُ أرى خيطَ ذكرى لامرأة أخرى. ثمّة جراحٌ، أيها الحبيب، لا يمكن علاجُها ولا غفرانُها، فيصبحُ الخطأ نهاية النهايات، وإعلاناً لبداية جديدة هذا ما قررت".

وتقاسمتُ العمرَ مع محبوب بحث عمّا يعتقد أنَّهُ يُسعدني ويجعلني أميرة، حملني يوم زفافنا لأتجاوز العتبة ووضعني على السرير كطفلة كان مُبعثراً كما كنت أنا مبعثرة، جمعنا الشوق ولملمة الخبرة، أعلم ويَعلمُ أننا نقطف عذريّة اللذّة حتى بالقبلة.

كان حنوناً يكبت شغفه بخبرةٍ لنستمتع بكل قبلة يزينها هو بهمسة، أخذني من نفسي ومن خُلّاني، أغناني بحبّه واهتمامه عن كل البشر، فكان الوطن الذي أسكنه دون أن يسكنني لكنّي بطبعي وفيّةٌ لذاتي وأكنُّ التقديرَ والحبَّ لمن قيّم قدراتي وجَلّ مكنوناتي.. فشكّلتُ مع فادي أجمل أسرة.

ـ ظهورُ نزار عكّرَ أيامي، مَزّق صفوتي.. كنت أعيش حياة هادئة بخطوات منتظمة وألحان متناغمة رغم اختلافها، أقطف ثمار نجاحاتي برتابة ولذّة، متذوقة أطايب تضحياتي، وتفاني فادي لإسعادي.

Scanned with CamScanner

حضوره جعلَ صخبَ صمتي يفوقُ ضجيجَ مدنٍ تعجُّ بالساكنين، وروحي معلقةً بالنجوم لا تسكن جسدي، أنينها لو ترجمته أفكاري ونبضات قلبي الفوضوية صرخاتٍ لهزّتْ سكونَ الليلِ، وحوَّلَتْ القمرَ، من كثرة حيرتي ومناجاتي، إلى براكين تحرقني حممُها تارةً، وتُذيبني طوراً لأطفوَ دون شعور مبين.

فكّرت: "لم تعدْ تجذبني رجولةُ نزار، بل باتَ يأسرُ قلبي كما يفعل كريم، لا أعلم! أهو شعوري بالذنب كوني تزوجت غيره فخذلته، رغم أنه هو من كان يخذلني دائماً، أم أن حبّي له سَما متجاوزاً الجسد".

كان يثير غيرتي فيستفزّني.

وضّحتُ له مراراً لا أحبُّ أن يكون لي شريكٌ بممتلكاتي فيجيب عابثاً: سأروّضك، مُقهقهاً بخبث أعلم أن لديك طاقات مكنوزة ستكفيني مدى الحياة لكن الألوان يا حبّي تغريني.

فأقول: ستدفعُ أيها الفاجرُ ثمنَ المحرماتِ، ونضحكُ هو بغرورِهِ وأنا بوجعي من القرارِ الذي أضمرت اتخاذه..

تمتمت أردد: كم أشتاق إليك يا فادي.

لن يفهم صمتي أحد إلا أنت، وستكتشف رياحَ حنيني ووجعَ السنين التي تضنيني، فأنت دوائي وبين أحضانك شفائي.

Scanned with CamScanner

ما أقساني عاقبت نزار على أخطائه وأعاقبك على أخطائي فتدفع ثمن حبّك لي.

شعرتُ بتأخر فادي، ولكي أتخلص من صراع أفكاري قررتُ إعدادَ التبّولة فهو يحبُّها كثيراً جمعتُ موادَّها من الحديقة التي زرعها ورتّبها بعناية فائقة لأجلي.

وقفت وظهري للمدخل أفرم مكوّناتها متمايلة على أنغام موسيقى نينوى تصدح بصوت مرتفع فتملأ روحي شجناً.

انتفضت عندما أحاطتني ذراعا فادي من الخلف وقبّلني على عنقي نكست رأسي مستسلمة وتعلقت بيديه أبكي اختلاط مشاعري وما أعتقده خيانتي بلطفٍ ورشاقةٍ راقصٍ لفّ بي لأواجهه وعلى عينيّ قبّلني قائلاً: ما بها نرجستي رافعاً وجهي سانداً ذقني بسبابته.

نظرت إليه ورغم ابتسامته وحنانه شاهدت قلقاً وضيقاً في عينيه الهاربتين من نظراتي.

عندها أيقنت أنه هو من أخبر نزار بمرضي.

جمدتْ مشاعري، وبردتْ أطرافي ووهنتْ أعصابي وتسلل اليأس إلى قلبي ساعدني فادي للوصول إلى كرسيّ وأجلسني يقول مرتبكاً: شحب لونك اهدأي.. أنا أخبرته بذلك لأجلك أنت، رأيتُ

Scanned with CamScanner

أنّ عليكما أن تتحادثا لترتاحي، أعرف طبيعتك وجلّ أوجاعك، اعلمي أنّ الأمر كان عليّ أصعب مما هو عليك بكثير، فأنا لم أستطع إنجاز أي عمل اليوم، قلبي وعقلي كانا هنا معك. رشق كلماته في وجهي كجندي باغته عدو وأخذ يدافع عن نفسه مستعداً للهروب.

صمتُّ وجَفّتْ دموعي فجأة وقست ملامحي، شعرت بالفقد كما شعرت به يوم إجراء عمليتي، نظرت إلى عينيه وسألته:

- فادي! أتختبرني أم تختبر نفسك..؟

- أردت أن تطوي صفحة تؤرقك، أجابني على الفور.

- لقد طويتها يا فادي منذ رفضت نزار وتزوجتك..

أيها الصديق المحبوب هو آلمني عندما اختلفنا فغادرَ ولم يعدْ، وهذا ما جرح كبريائي وأوجعَ عزّتي فخططت بكيد جميع النساءِ أن أغريه، وأحرّك نار الغيرة فيه، بأقرب صديق له حتى يعودَ، وعندها أُقصيه وقتها انتهيت منه ودفنته.. ورغم وجعي وخجلي من صديقه رامي عندما اكتشف مكيدتي وأدرك أني قَبلت غزله والتقرب منه لأثير غيرة صديقه ويعود إليّ نادماً فأرفضه ، ودون أن يعاتبني لملم ذيول الخيبة وغادر، كم آلمت أعزّاءً على قلبي لأشفى من نزار فهل فعلت..؟!

Scanned with CamScanner

- نزار هو الحنينُ الذي يودي بكِ إلى ذلك الفراغ الأسود الذي دائماً تذكرين.

- لا تُكملْ.. هو ذكرى كغيمةٍ عبرتْ من مدة بعد أن تغيّر شكلُها مراتٍ ومرات إلى أن تلاشتْ.

- دائماً جمرُ السنين يتأجّجُ، ويحرقُ الياسمينُ فيكوي القلبَ بالحنين يا عليا.

- نحن ثنائيٌّ جميل يبدعُ الحبَّ بلا أنينُ لا تنزع ذلك الترنيم يا فادي، تعاهدنا أن نبقى سعداءَ على مرِّ العمرِ، فإنْ شعرتَ بالعجزِ انسحبْ، ولن أحزنَ، أو ألومَكَ، لديك مبرراتٌ كثيرة لذلك.

قلتُ كلامي بحزمٍ وعيوني تحدّقُ في عينيهِ مباشرةً.

ظهرَتْ علائمُ الحنقِ والانزعاج على وجههِ، وغادرَ من دونِ أنْ يجيبَ على هجومي.

لم أسمعْ صوتَ سيارته، فعلمتُ أنّه خرج إلى الحقل ليفرّغ غضبَهُ بأعمالِ الأرضِ كالمعتاد.

أكملتُ تجهيز التبولةِ دون أن أخلطَ مكوّناتِها وخرجتُ إلى الحديقةِ.

Scanned with CamScanner

جلستُ على أريكة هيأها لي فادي تحتَ شجرةِ برتقالٍ، أقرأ الجزءَ الثاني من ثلاثيَّةِ "علامة الأسد" لفرنسين ريفرز بعنوان "صدى في الظلام" جلبها فادي بعد أن قرأتُ الجزءَ الأولَ "صوت في الريح" من الانترنت، فقد تعودتُ أن أدوّن أسماء الكتب التي أريد قراءتها في مذكرة خاصة، يطّلع عليها كلَّ حين ليأتيني بها كمفاجأة أو هدية بمناسبات تخصني مما يبثُّ الفرح في قلبي. مضى على غياب فادي ساعات وأنا أقرأ عن معجزات الحبِّ، وكيفَ يُبدّلُ النفوسَ ويُهذّب السلوك، ويستردُّ الخسارات اذا تعمق بالروح، فهو يدفعُ للتضحيةِ دون انتظار مقابل، فتذكرتُ فادي وبحثتُ عن سببِ تصرّفِهِ فاشتعل قلبي شوقاً لدفءِ أنفاسِهِ، ومتانَةِ يديه، وهدوءِ عينيهِ، تناولتُ هاتفي ولم أتصل به، نظرتُ إليه، وأعدتُه، وسرحت أتأملُ الحقلَ فلمحتُهُ بين الأشجار يعملُ بكدٍّ لتستكينَ روحُهُ، وتنتظمَ ضرباتُ قلبه ويُبدّدَ انزعاجه.

عاد فادي بعد مضي ساعات إضافية منهك القوى بنظرات ثابتة، نزع ملابسه المبللة بالعرق خارجاً وأنا أرقبه ودخل الحمام ليخرجَ بعد قليل ملتفاً بمنشفة صفراء تغطي القسم السفلي فقط من جسده رغم برودة الجو، وبدأ ينقلُ الأواني المملوءة بالطعام، ويضعُها على الطاولة أمامي.

Scanned with CamScanner

نهضتُ لأكملَ إعداد التبولةِ أنظر إليه بطرف عيني.

كم أحبُّ أثرَ الأرضِ على جسمه وأعشقُ السمرةَ في عينيه ويثملني تحنانُ يديه. وضعتُ التبولة بعد أن زينتُها ،وتناولتُ القلمَ وكتبت على غلاف كتابي:

"آهٍ أيُّها المحبوبُ كيفَ أسرتني؟

ما المميّزُ فيكَ حتى سحرتني؟

و لهدوء نفسي أرجعتني

ما المكمل لي عندك وينقصني!

نعم تعجبني... أتوقُ لأعذّبك فلا تعذّبني."

قرأها ونظر إليّ..

ابتسمنا معاً وقلبانا يغتسلان من كلّ نفور، ويتناجيان، اقتربنا وكان عناقاً لاثنين ينصهران بالحبّ تعمّدا من قديم الزمان وأخذتْ شفتاه تحرقان جسدي البارد وتكويانه بلهيب الشوق ونشوة الغفران.

كان اجتياحه صاخباً كأنّهُ فقدَ السيطرةَ على نفسه، أوجعني ولم يكترث إن أمتعني أم لا، ما أخافني، وللمرة الأولى في حياته، بعد انتهاء طقس العبادة، كما يسميه عادة، أنّه لم يحتضنني، ولم

Scanned with CamScanner

ننم متعانقين، بل أدارَ لي ظهرَهُ وغفا، وهذا ما قهرني، وأشعلَ ناراً في قلبي، وبدأت الشكوكُ تنالُ مني، استمر بنومه ساعاتٍ حتى حلَّ الليلُ.

فعلمت إن شيئاً ما تغيّرَ في أعماق فادي فما عاد كما كان ما أقلقني وقضّ مضجعي، ضجَّ قلبي، وصخبَ فكري وبدأتُ أهزي،

أيها الليل!! أما قيل إنَّكَ للسكينةِ والراحةِ، فما بالك تأتيني محمّلاً بالأرقِ وبصراعات تمزّقُ كياني، وتشتت حالي، فتصبح طويلاً ثقيلاً..!

ما الّذي بدّلك يا فادي؟ تساءلتُ.

أهي تلك الحربُ الملعونةُ التي سلبتْ منك أغلبَ ممتلكاتك فلم تَعد الخسارات تعنيك..!

أم أنَّ هناك أشياء توجعُكَ وباتتْ تُلهيك عن أوجاعي؟

إذ لكلٍّ منّا حياتان: الأولى نعيشُها بين الناس وما يعتقدون أننا نحياها، والثانية التي يَسعون لاكتشافها ونسعى نحن لإخفائها.

سأصبرُ عليكَ يا فادي، وأنتظرُ ما تخفي.

زقزق ذاك العصفورُ معلناً حلولَ الصباح ووقت النهوض.

Scanned with CamScanner

كأن فادي مثلي لم ينم، نهض من الفراش على عجل، وبدأ ممارسة طقوسه اليومية من حلاقة وحمام بعد أن أعدّ القهوة وهو يتابع ارتداء ملابسه.

انتظرته بعد أن ملأ فنجاني بالقهوة، وأنا أتأمل هاتفي دون تركيز، وهو يجلس قبالتي، قال ببرود وحزم:

"شمس" لديها مخططات يجبُ أن تطّلعي عليها، أنت الوحيدة القادرة على محاورتها واحتواء ضخامة روحها. وأضاف: سأنجز أعمالي بسرعة، لأعودَ باكراً أرجو أن تكوني جاهزةً للرجوع إلى البيت انتهت نقاهتُك واقترب موعد مراجعة طبيبك.

- حسناً وأعمال الحقل..؟

- سنأتي في أيام العطلِ فقط، ووقت الحاجة إن أردتِ، أو استدعى الأمرُ ذلك.

قبّل خدّي وغادر مرتبكاً يدّعي العجلة هارباً من نظراتي وأنا أدعو له في سرّي بالتوفيق وهدأة البال.

مهما حاولنا أن نحميَ أحبّتنا لنجنّبهم الوجع الذي مررنا به لن ننجحَ وسيتعرضون له يوماً ما..

لذلك يجبُ أن نستسلمَ ونتركَهُم يخوضون تجارِبَهُم ويرتكبون

Scanned with CamScanner

أخطاءهم الخاصة، وعلينا أن نكتفيَ بمراقبتهم راجين أن يتوجهوا نَحونا عند سقوطهم، وعند شعورهم بالألم فنكون لهم عوناً دون أن نؤنبهم حتى لا يندموا أو يشعروا بالحرج..

كبرتْ "شمس" ونمت أجنحتُهَا لتصبح كالطيور المهاجرة، تشبهني بتمردها وجموح أفكارِها، فسطعت أشعتها المحرقة تتجلى بحدّة طباعها وكبر أحلامها فقد كان جسدُها صغيراً على حجم روحها الثائرة كمارد مسجون أحياناً.

استقبلتني مع كريم بفرحٍ كبيرٍ، وشغفٍ فاضَ من عيونهما، عبَّرا عنه على طريقتهما بالعزف والغناء لي مع ضحكاتٍ ورقصاتٍ فوضويةٍ وعناقٍ دافئ، ساد الاستقرارُ في البيت حالَ حضوري.

تسامرنا حتى بزوغ الفجر، شمس مستلقيةٌ على سريرها، وأنا أحتضنُ كريماً في سريره، وغفونا دون أن نشعرَ بمغادرة فادي إلى عمله صباحاً، ما أشعرني بحزنٍ وظلمة روح، لأنني لم أستيقظ كالعادة معه، ولم نتناول قهوة الصباح سويّة..

جلستُ أمامَ نافذتي أتأمّلُ حركةَ الشارعِ ونشاطَ الناسِ، أتناولُ كوباً من الشاي الأخضر، فأنا لا أُحبُّ قهوةَ الصباح إلا من صنع فادي، ومعه..

Scanned with CamScanner

يا لتلك الحارَةِ الشعبيَّةِ الجميلة، كم كرهتها في بداية زواجي، لصخبها حيناً، ولشعوري بالغربة أحياناً أخرى، ولكن بمرور السنين ألفتها وأحببتُ كلَّ شيء فيها مع محافظتي على حدودٍ ضيّقةٍ للتعارف والاختلاط بسكانها.

أثناء ترتيب البيت لاحظتُ أوراقاً تخص جامعات خاصة أوروبية، ووسائل إيضاح وشروط قبول على شاشة الحاسوب أثناء محاولتي تشغيل الأغاني، فعدلت عن الأمر أكتفي بصخب الحارة.

التفتُّ، أنظر بتأمّل إلى شمس، تلك الفراشة التي تُقحم نفسها لاكتشاف النور غير عابئة بالاحتراق همستُ: ليتني أعرف ماذا يدور بذلك الرأس الجميل.

تابعتُ عملي بذهنٍ منشغلٍ بالتبدلاتِ التي طرأت على حياتي، وعلى ولديّ، جهّزتُ الفطورَ بانتظار استيقاظهم المتأخر، وعدم التزام كريم بالدوام المدرسي.

بررت: لا بأس هو يوم استثنائي..

وعاودني الحزن ثانية حين بدأت التفكير، ها هي شمس شأنها شأن أبناء جيلها الذين يطاردون أحلامهم الكبيرة بعد أن أضاعت الحرب شبابهم، وأذاقتهم الأيام الكثير من قسوتها تنوي الرحيل تلاحق خيط حلمها ودخان هواجسها.

Scanned with CamScanner

لا يليقُ بالسوري الشتات، وخصوصاً مع تلك الظروف، والضغوط السياسية والاقتصادية الهائلة، التي أرهقت أرواحاً لا تمتلكُ الخيارَ، سرقتْ الحربُ فُرصَهم، وتآكلتْ جرّاءها أحلامُهُم داخلَ البلادِ وخارجَها، سُيِّستْ خطواتُهم، وترتّبَ عليهم فعلُ مالا يقتنعون به فقط لضمان استمرارية حياتهم، وتحمُّل مسؤولية القرار الذي اتخذوه، ومتابعةِ الحياةِ بطعم الغربة المرِّ، فالعودة إلى الوطن صارت أصعب، مع الاتهامات التي تلاحقهم، وبات التحقيق هاجسٌ دائم ينبت خوفاً، وكثيراً ما يترتب عليهم مُساءلات وشكوك على الرغم من الحنين الذي يملأ حياتهم والندم على ما فات، حالمين بالعودة، منتظرين قرار حكومات، يتربص بهم الخوف من كل الاتجاهات.

درست شمس الهندسة المدنية التي تُفضلها، ضاربةً عرضَ الحائطِ بجميع النصائح التي وُجّهَتْ لها حول الأنسب لمُستقبلها، فقد اختارت وانقضى الأمر.

كانت قد تعرفت من سنين على أصدقاء أغلبهم بواسطة شبكات التواصل الاجتماعي، وبعضهم تعرفت عليهم في المدرسة، أعمارُهُم متقاربةٌ إلا أنها الأصغر بينهم، أحببتُ صفاتهم، فهم يطالعون بشغف، يتابعون دراستهم بكل جدية، أكثرهم يعمل

Scanned with CamScanner

معتمداً على موهبته الموسيقية، أو من خلال تمكُّنه من إتقان اللغات الأجنبيّة، وامتلاك البعض مهارات أخرى، يشكّكونَ بكل ما يسمعون، نَهِمُون للمعرفة، مخيفون بفضولهم.

يتقابلون وفق مواعيد محدَّدة ضمن الأسبوع في إحدى الاستراحات أو المقاهي الطلابية القريبة من الجامعة.

بعد بداية العام الدراسي وتجاوز الفصل الأول أخذَ عددُهم بالتناقصِ بسببِ السفرِ، فمنهم من هرب من الخدمة الإلزامية بحجّة متابعة الدراسة، وآخرون لقناعتهم بعدم وجود فرصِ عيشٍ في بلادنا في ظروف الحرب المرهقة، وتردّي مستوى التعليم، إذ فقدت جامعاتنا ترتيبها الذي كان جيّداً بين الدول، وازدادت مسألة معادلة شهاداتها تعقيداً، مما أفقد طلابها دافع الاجتهاد، إضافة إلى انتشار الفساد بين كوادرها الذين يفترض أن يمثّلوا أرقى شريحة مجتمعية، وغياب المحاسبة، ونمو سطوة المال وقدرته على التأثير حتى في الأحكام القضائية..

فالتمرّد صفة ترافق الشباب .

نحن مررنا بتلك المرحلة العمريَّةِ، مع فارق كبير تجلّى بحسّ المسؤولية، الذي كنّا نملكه، ما كان يجعل الخوف من الفشل هاجساً نتجنبه، أما من تلانا من الأجيال فإنهم لا يفكّرُون بالعقبات والنتائج،

Scanned with CamScanner

بل يُقحمون أنفسهم بالنار ويرمون العبء على الكبار والظروف. يبدو أنّ لكلّ زمانٍ روّادَهُ، وطريقة تفكير تخصّ أبناءه، من هنا يجب علينا احتواء فارق العمر، وتقبّل متطلباتِ الحياةِ وتغيراتها.

كان "زياد" الأكبر سنّاً بين أفراد المجموعة، والأكثر خبرة، وهو من يحدّد موعد اللقاءات لأنه من خارج المدينة كما أن القيادة تسري بدمه، والـ "أنا" متضخّمة عنده.. وهو يدرس الطبَّ نزولاً عند رغبة والده، ولأنه الأفضل كمستقبل، لكنه موهوبٌ ويفضّل الفنون والمسارح، يتقن الغناء الغربي والعزف على الغيتار.

تقرّب من "شمس" وبخلاف باقي رفاقها حادثني وطلب لقائي، عرفته شاباً جريئاً لا يعرف التردّدُ سبيلاً إلى قلبه، بهيّ الطلعة بشعره الطويل الأجعد المجموع بربطة مطاطيّة كمحارب الساموراي.

أنانيّ لا يحبّ القيود يسعى لتحقيق أهدافه بكل السبل، سلطوي، كوّنْتُ فكرتي عنه ولم أبح بها لشمس حتى لا تنفر مني وتمتنع عن البوح لي بما يجري بينهما.

راسل جامعة روسيّة وسافر مع بقاء تواصله بشمس، واعداً إياها بالعودة أو استقدامها إلى روسيا للدراسة من باب الصداقة المتواطئة بينهما ووضوح علاقة الحبّ التي تربطهما.

Scanned with CamScanner

بمغادرته كانت المرة الأولى التي أرى فيها شمس ضعيفة مشتّتة فتيقّنتُ من حبّها له سَردتُ لها قصّتي مع نزار وكيف أنّ الظروف تُبدّل ما في النفوس، فيتغيّرُ الحال بمرور الزمن، دون أن أفرض أو أحكي مخاوفي بشكل مباشر، أدعها تأخذ وقتها لتنضج أفكارها، وتحدّد الأيام مسار قراراتها ومنحى علاقتها بزياد من خلال تجربتها، لتحسم أمرها ويسهل تخطي عواطفها وفق قرار عقلها..

سُعِرتْ بلادي في مرحلة الحرب..

عمّ الدمار العمراني والنفسي، إذ أُحرقت الأحلام، والأرضُ ما عادت تشبعها الأشلاء، ولا ترويها دماء القرابين.

تشوّهت النفوس، وتبدّلت القيمُ والمفهوماتُ، فأصبح الصالحُ شاذّاً، وسادَ البلاءُ والفسادُ، وزادت القسوةُ، وتحولت العلاقات الإنسانيّة إلى مصالح ماديّة لا رحمة فيها ولا حنيّة، ملأ الشرّ الصدور، وانتشر السلاح بغياب القانون، وصار أيُّ خلاف بسيط يمكن أن تُراق الدماء لأجله، فمَن أحبَّ فتاة يأتيها مدجّجاً بالسلاح، يعبّرُ عن هيامه بها بإطلاق الرصاص أمام منزلها، وأمّا إذا رفضت هذا الحبّ فقد يفجّر نفسه معها، أو يُطلق الرصاص على أهلها وعليها ويلوذ بالفرار.

Scanned with CamScanner

وفي تشييع الشهداء يسقط أموات بسبب إطلاق النار العشوائي.. كنّا نُعبّر عن الموت بالصمت احتراماً، صرنا نصخب دون حياء، وهكذا في غياب المعايير والضوابط والقوانين أصبحنا نادراً ما نرى مسؤولاً في مكانه المناسب، والأنكى من ذلك أنّه يتبجح بالمبادئ مردّداً شعارات أفرغها الكذب، في النهاية لن يصحّ إلا الصحيح وستبقى أرضنا مهد حضارات مهما عاثوا فيها فساداً ونكلوا بشعبها قهراً.. فنحن شعبٌ محبٌّ للحياة، سنشقى لنرمّم ما خرّبته الأيام بوجود تلك التضحيات وسيشرق الفجر من جديد معلناً ازدهار أرض الياسمين هذا أملي ورجائي كرمى لأبنائي...

كنت شاردة الذهن بقلبٍ ممتلئ بالحنين لأيام غابت من سنين حين قاطعت شمسُ أفكاري بضجيجها المفرح تمضغ لقمتها الأخيرة من فطوري الدسم:

- ما أجمل أن أستيقظ وكلّ شيء جاهز!

صباحك خير ماما.

- انقضى الصباح منذ ساعات يا أميرتي قولي ظهر الخير، ابتسمتُ وأنا أردُّ القبلة بقبلة.

- رمت بنفسها على الأريكة قبالتي، يملأ وجهها الصخب، وعيناها تفيضان بمشاعر عدّة.

Scanned with CamScanner

تأملتها ورحت أفكر: يا لجمال هذه المرحلة ويا لفوضويتها النفسيّة وتقلباتها، حيث ترى في العيون حبّاً وضياعاً، وفي التصرفات طفولة واتّزاناً، هؤلاء الشباب لا يعلمون أنّ باتتها، المرحلة الثانوية في بلداننا تبدأ هموم الأيام وتعقيداتها، ويُصبح القرار انحرافاً لمجرى حياتهم برمّتها.

أأحزن على نفسي، وأعتب على أُمي لعدم وضعها إشارات توجيه لمفارق حياتي!؟ لأعودَ وأجد لها ما يبرّر، فهي لم تكن تملكُ ما أملكه من قدرات لتقدمها لي كما أقدم أنا لشمس، أهلنا عاشوا على فطرة الحبّ، وقدّموا لنا كل ما ملكوه بخالص الصدق.

قدّمتْ والدتي كلّ ما تمتلك لمساندتي، وأنا أؤمن أنّ للزمن، كما للإمكانيات، فوارق تزداد بمرور الأيام.

تبلورت شخصيتي بسبب اعتمادي على ذاتي، وثقة والدي بي، وكميّة الحبّ التي أخذتها من والدتي، وهو الحبّ المشوب بالخوف الذي يتجلّى حيناً بالتسلّط.

في الشرق تتحمّل الأمُّ أعباء التربية، ممّا يضطرّها لأن تبدو قاسية غالباً، لكبح جماح تمرّدِ الأبناء، وسيرهم وفق نظامٍ ما يصقل شخصيتهم.

Scanned with CamScanner

هل سيضرّ شمس إن قدّمت لها النصيحة وكلّ الدعم! وهل ستستمع وتستجيب بمساحة الحريّة التي حصلت عليها!

فالأبناء لا يدركوا أن آبائهم كانوا على صحّ في نصائحهم لهم إلا حين يُنجبوا أولاداً و يتّهمونهم أنّهم هم على خطأ..

سأنسج لها جناحين لتطير بهما مكتشفة الكون، وأزرع في قلبها شوقاً لحضني الحنون فتعود متى أتعبتها السنون أو تُصدم ويجتاحها الحنين.

قطبتُ حاجبيّ أسألها:

شمس ما قصّة الأوراق على مكتبك..؟

- جهّزت أوراقي وبعثتها إلى زياد في روسيا ليقدّمها إلى الجامعة، ومن حسن حظي أنهم قبلوا طلباتي وقد وعدني أن يساندني بإتقانه اللغة فيعلّمني إياها.

- وما المطلوب يا شقيّة؟

- إقناع والدي وتجهيز أوراق وأمور سفري، فهو ممتعض منّي، وغير موافق على أفكاري.

- حسناً.. لا تخبريه شيئاً عن زياد سنرى ما نفعل.

قبّلتني بامتنان وغادرت إلى غرفتها.

Scanned with CamScanner

فادي ذاك الرجل المتحضّر النبيل، بقدر حبّه لي وشغفه بي، لم أشعر يوماً بغيرته المزعجة عليّ، لكن تجاه شمس فغيرته قاتلة يراقبها كالحارس الأمين بتوجس من كلّ أخ وقريب فكيف بالصديق.. أضحك حيناً وأحزن عليه أحياناً.

شمس بالنسبة له من الخطوط الحمراء القليلة لذلك يَتْعَبُ ويُتعبها.

ابنتي تمتلك قلباً كشمس الفجر ملتهباً يسعى دائماً للترحال واكتشاف سبل تغيير القدر.

وقلب فادي واسع يريد أن يحتوي كل أحبابه فيه، وهو رغم أوجاعه يعتقد أنه يجب أن يتحمل مسؤولية كل البشر.

جاء فادي متأخراً بوجه مكفهرّ وصمت ثقيل، ينظر شذراً لكلّ شيء.

وأثناء تناولنا وجبة الغداء قطع حديث الأولاد المشاكس وتحويلهم كل كلمة إلى فكاهة وتسلية وقال بصرامة واختصار:

- غداً موعدنا للفحص الدوري كوني جاهزة صباحاً.

صمت الجميع حتى انتهاء وجبتهم.

Scanned with CamScanner

انسحب كريم إلى غرفته وشمس لملمت المائدة تساعدني وحال انتهائنا لحقت أخاها.

كرهت صمت فادي وتجنبت الحديث معه، أما هو فلم يبادر، لذلك أصبح وجوده في البيت ثقيلاً عليّ وعلى الأولاد.

هربت إلى كتابي وقرّرتُ تجاهلَهُ والابتعادَ عنه ومحاسبتَه على برودته تجاهي دون المواجهة معه، رغم رغبتي بمحاورته ليرتاح كلانا.

استيقظت باكراً وضعت دلّة القهوة على النار حملت الفناجين إلى الصالون مقابل نافذتي التي اعتدنا الجلوس أمامها متقابلين.

جهّز القهوة ولحقني بها تعلو وجهه ابتسامة مصطنعة:

- صباح الخير، تابع دون انتظار ردي:

هل أنت مستعدة اليوم لقضاء نهارك بصحبتي أم ستفرّين من كل مكان أتواجد فيه كالمعتاد..؟

- أتلومني!

- قليلاً كما ألوم نفسي.

- جيّد.. قلتها وأخذتُ رشفة من فنجاني لأتابع على مهل:

أيها المحبوب تعلم أني لا أحبّ المزاجيّة ولا أتجاهل ما يزعج أحبابي لكن من الضروري أن نرتّبَ حياتنا كل حين.

Scanned with CamScanner

نراجع ما فات، ونحصي نجاحاتنا وانكساراتنا، ونشرح الأسباب.. وأنت كنت ثقيل الظل في الأيام الفائتة، قاسياً فهل ترى أنّ هناك متسع من الوقت للتجافي..؟

- سنتابع حديثنا يا عليا في مكان هادئ بعد إجراء كامل الاختبارات.

جهّزنا نفسينا بعد انتهاء قهوة الصباح، وخرجنا نقصد الطبيب، ومن عنده إلى المختبر ثم مركز الأشعة، وحال إتمام المطلوب، كما العادة، قصدنا مطعماً ريفيّاً هادئاً اعتدنا منذ سنين مضت ارتياده بفترات متباعدة، يقع على أطراف المدينة، فأخذتني ألفة المكان إلى مرحلة موغلة بالذكريات بواجهته المغطاة بنبتة مُتعرشة تسمى المجنونة، دائمة الخضرة بزهور ألوانها صارخة واتساع بوابته بطابعها الشرقي وخشبها البنّي المحفور بإتقان، وعلى طرفيها يقبع ذات الأسدين يجلسان على قائمتيهما الخلفيّة وقد فقدا هيبتهما بظهور علائم الزمن على لونهما الباهت، وجانب كل منهما أنواعاً من ورود الجوري المخملي باللونين الخمري المائل للسواد والأحمر القاني الذي يخصّ العشّاق، وحال اقترابك من باب الدخول تسمع خرير ماء لا تدرك مصدره إلّا حين تنظر إلى يسارك فترى أنّ البناء يقع في منخفض على كتف تلّة، بُني على جدول ماء،

Scanned with CamScanner

وهناك نبع ينحني كشلّال يجري يميناً خارجاً من تحت المطعم ينساب مبتعداً حوالي كيلومتر ليصب بالبحر.

استقبلنا مديره بفرح صديق عانق فادي بحبّ وصافحني لمساً دون أن يمسك يدي بعيون خجلى تتفحصني سرّاً لمعرفته بمرضي فشردت أفكّر هل يراني تبدلت..؟!

ما لي لا أشعر بالغبطة؟

تنبهت على يد فادي تساعدني لأرتقي الدرجات قلت بامتعاض:

- اعتقدت أنك ستأخذني إلى كوخنا الذي أحبّ.

حينها أدرك أنّي متوترة فابتسم يومئ بعينيه.

وتجاهل قولي ليكسر الصمت بعد برهةٍ حال جلوسنا قائلاً:

أتعلمين أن نزار نُقل إلى دير الزور مع مجموعته..!

- حماهم الله قلتها محاولة إخفاء غصّة قلب ورجفة خوف، وعن نفسي دافعت: ولماذا تُخبرني..؟

ظهرت على ملامحه علائم اليأس وقال برجاء:

- لا تحاسبيني على كلّ كلمة مجرّد حديث. وأضاف:

Scanned with CamScanner

احترمت نزار دائماً بحسّه الوطني، وشهامته، وسعيه الحثيث للتضحية من أجل ما يعدّه قضيّة، فهو وحيد أمّه، وتطوّع ليزود عن عقيدته وقوميته بوجود كثير من الشباب الذين هربوا من واجبهم.

ألومه على حياته الشخصيّة المنفلتة التي لا تعجبني، ولولا ثقتي بك ولأجلك لما أخبرته ذاك اليوم بمرضك.

وحين سكوتي تابع بعد لحظة:

حسناً يا نرجستي، سنتناول طعامنا هنا، ونكمل حديثنا حيث تحبّين إن أردتِ ذلك، غامزاً بمرحٍ صبياني ونهض مبتعداً باتجاه الشيف موضحاً سأهتمّ بطعامك.

أشرف فادي على تنظيف الخضار خاصّتي، وراقب إعداد طبقي بنفسه في مطبخ المطعم، وعاد يحمل وردة جورية حمراء قدّمها لي بطريقة مسرحية مع قبلة حملت شوقاً كبيراً شعرت به، رغم ما بيننا من توتّر والعيون ترقبنا.. لا أدري مما أنا متوجّسة وقلبي منقبض يترقب حدوث ما يزعج ابتسمت له بتكلف فهرب بنظراته بعيداً وهو يقول:

سأُحضّر لك القهوة في حقلنا على نار الحطبِ، وأحرص أن تكون الرغوة كثيفة بحجم أحلامك.

Scanned with CamScanner

- باتت أحلامي قليلةً يا فادي فقد كبُرَ الأولادُ وأصبحوا كلّ الحياة واقعاً وحلماً.

- وأنا لا مكان لي! يتصنّع المرح.

- أشعر أنّ المسافة بيننا تتّسع لا أدري لماذا!

ظهر الحزنُ في عينيه ولم يُجِب بل صمت فتداركت الأمرَ وقلت: آسفة يا فادي ما تعودتُ أن أُراوغَ معك،

أُصارحك لأحافظ عليك لا لأخسرك.

دعنا نبحث في الأسباب ونبقى على عهدنا.

- لا شيء تغيّر يا زهرتي وحلمي.

حال انتهائنا من تناول وجبتنا قال:

هيا نغادر.. سأتصل بشمس وأخبرها أنّنا سنتأخر.

كان الطقس بديعاً، الشمس على وشك المغيب والعصافير تعود لأعشاشها بصخب شديد...

يا لروعة المكان، يبثّ الطمأنينة والهدوء في نفسي، رغم ما أشعر به من ضيق فقد ارتاحت أعصابي.

شعرت بتوتر فادي، فابتسمت متناسية الجفاء الذي بيننا.. أزال أغطية المقاعد في الحديقة قائلاً:

Scanned with CamScanner

- اجلسي.. سأحضّر القهوة.

لحقته أراقب ما يفعل عن بعد.

قبل أن يغلي الماءُ وضع البنّ وحرّكهُ، انتظر قليلاً.. وقبل أن تفور القهوة أضافَ إليها قليلاً من الماء البارد وأعاد وضعها على النار حتى عادت تفورُ مرة أخرى فيبعدها ويعيدها إلى النار من جديد ليسمع صوت الغليان وتبقى الرغوة..

سكب القهوة في فنجاني وأخذ يضرب الرغوة بلطف بملعقته الصغيرة كريشة فنانٍ ثم تابع ملء الفنجان وابتسم باعتزاز بعدما ملأ فنجانه تقدّم يحمل الصينيّة باتجاهي قائلاً: انظري مشيراً لفنجاني..

عندما شاهدته ضحكت بفرح عاشقةٍ فقد رسم قلباً داخل الرغوة.. وقلت:

- إنّكَ بارعٌ!!

- نعم تعلمت الطريقة لأجلك، كما قرأت أنّ القهوةَ بالفنجان الأبيض ألذُّ طعماً.. لذلك تختارين الفناجين ناصعة دائماً..!؟

- لا ! مجرد مزاج.. أحبُّ شرب القهوة بتلك الفناجين، والآن علمت السبب..

Scanned with CamScanner

غمزته بشقاوة: بفطرتي أختار الأفضل دائماً.

- أنا محظوظٌ، قالها مع ابتسامة ثقة ورضا.

- لا بل أنت تستحق.. هذا ما قاله نزار.

كنت الأفضل والأجدر باختياري.

لمعت عيناه متسائلة.. أردفت:

يومها غادرَ دونَ أنْ نتمّمَ حديثنا أو نتعاتَبَ.. دخلت أحضّر القهوة لأخرج مسرعةً عند سماع صوت سيارته تهمُّ بالمغادرة.

- هو ما زال يكنّ لكِ الحبَّ والتقدير.

- تاه عندما أخبرته بمرضك، وبكى كطفلٍ صغير أمامي، وبحرقةٍ عاتبني لعدم إخباره متناسياً أنّي غريمه، وبدأ يهذي بلقائكما على الشاطئ وأنّه لاحظ تغييراً عليك وانكساراً لم يدرك سببه.. قال لم أعتقد يوماً أنّني سأخسرها، حطّمني قرارها.. وسيقتلني مرضها..

سقطت دمعة أحرقت وجنتيّ فمدّ فادي يده وربت على يدي مؤكداً:

- سيرجع.. وتلتقيا ثانية، وتتعاتبا، لتتصالحا وتعودا صديقين من جديد..

Scanned with CamScanner

- لا أيها المحبوب الراقي.. من الممكن أن تتحوّلَ الصداقةُ إلى حبّ لكن من المحال أن يتحولَ الحبُّ إلى صداقة..

ولكن ما يحقق السعادة ويمثّل الجمال أن نتزوج الصديق الحبيب.

اعلم يا عزيزي أنّ هناك نمطين من الرجال: الأول يحطّم القلوب، والثاني يزرع الأمل فيها.. وأغلبُ النساءِ يُغرمْنَ بالأولِ، ويتزوجنَ من الثاني.

أحبّك أيتها الفيلسوفة كعهدنا السابق وأكثر..

فقد أدمنتُكِ يا عليا، وعندما أفكّر بخسارتك أفقِدُ صوابي، وتتوه أفكاري..

- فادي.. لولا اهتمامك والحبّ الكبير في قلبك لقتلني اليأس، ولخسرتُ ذاتي..

كنتَ من زرع الأملَ في قلبي لأصارعَ مرضي وأبقى أتنعمُ باهتمامك وأسعد بمساندتك لإيصال الأولاد إلى برّ الأمان فكانت محبتُكَ سببَ شِفائي.

- نحنُ أسرةٌ نموذجيّةٌ، فلنحافظ على نتاجنا.

على الناجحِ أن يتنازلَ عن الكثير ليُصَنّف بين الناجحين، ويجبُ الاستمرار بالنجاح مهما كانت خسارتنا.

Scanned with CamScanner

نظر متسائلاً، تملأ عيونهُ الحيرةُ وبعضُ الاستغرابِ المشوبِ بالانزعاج.

- أقصد شمس..

تبدلتْ ملامحُهُ، وظهرتْ انفعالاتُهُ المتناقضةُ، وصرخَ لن أوافقَ، ولن تستطيعَ السفرَ من دونِ موافقتي، ونهضَ يهمُّ بالخروج.

فتابعت أرفع صوتي ليسمع كلامي:

- تحتاجُ عونَكَ قبلَ موافقتِكَ، توقّفَ يستمعُ لما أقولُ..

أتخسرُها وهي بجانبك، أم تربحها وهي بعيدةٌ عنك؟!!

فادي.. أرجوكَ دعها تختار حياتها..

إنّ أولادنا أبناء الحياةِ، لهم زمانهم ولنا زماننا، وقد قمنا بكلّ ما نقدر لنزرعَ في قلوبهم بذورَ الحبِّ والمسؤولية، أربطهم بحبلِ الثّقةِ والأمانِ ليعودوا متى احتاجوك.

توعّد بشيء من الحِدّةِ: ستتحملين نتائج هذا القرار بمفردك لاحقاً، ألا تلاحظينَ أنّ قيمة المواطنِ السوريّ قد قلّت رغم تميزه وإتقانه عمله وإبداعاته خارج بلده، أعلم أنَّ غيبتها ستطولُ، وأكثر ما أخشاه أن تتألّمَ كثيراً إن ابتعدت عنّا، سأقوم بكل ما يتوجب عليّ لكنّي لست موافقاً ضمنياً..

Scanned with CamScanner

وقال متابعاً:

هذه الحربُ الملعونةُ قطعت صلة الأرحام، وجعلت الهروبَ إلى المجهولِ غاية الشباب. سنندمُ جميعاً.. مغادرةُ جيلِ الشبابِ والمفكرين واليدِ العاملةِ تجعلُ الوطنَ ينهارُ، فيعمُّهُ الدمارُ، ويُسهّلُ تآكل المجتمع..

رأيت في عينيه القهرَ والفقدَ والعجزَ، وكم أوجعني ذلك، فصمتّ كما فعل، وندمتُ على إضاعةِ فرصةِ الوفاقِ بيننا وإهدارِ جهوده لإرضائي..

عدنا إلى البيت كأننا غرباء، كلٌّ منّا غارقٌ في تفكيرِهِ، تحرقُهُ نارٌ مُتقدةٌ في عمق روحه، وتؤلمُهُ عذاباتُهُ..

لكنني أثق أنه سيفكر بكلامي ولن يختار إلا ما يرضي انسانيته ويحقّق حريّة شمس المسؤولة..

رغم سطوتي على فادي، وقدرتي على تبديلِ آرائِهِ، فإن بُعدَهُ وصمتَهُ يشتّتانِ تفكيري ويُضْعِفانِ عزيمتي، وغضبُهُ يُبدّدُ فرحتي ويضني روحي، موضوعُ "شمس" يُشعرني أنّه سيبتعدُ عني أكثر وباشتياقه لها سيلومني مع ذلك سأحرصُ على ألّا تفقِدَ حبّها أو حلمها، سأكون دائماً ملاكَهَا وسندَهَا ما حييتُ أدعمها بكل المواقف ولو خَسِرتُ فادي واهتمامه، هذا ما أدركه فادي فَباشر

Scanned with CamScanner

باستخراج أوراقِ السفرِ لها وأخذَ يغوصُ في أعماق ذاتِهِ مبتعداً عن الجميع، ينجزُ أعمالَهُ في المدينة فترة الصباح، ويذهب إلى الحقل ليعود إلى البيت متأخراً.

لم يستغرق وقتاً طويلاً لإنهاء أوراق السفر الخاصة بشمس، فقد تواصل مع صديق له يعمل في السفارة السورية في روسيا لتسهيل أمورها بالتنسيق مع زياد، حيث أمّنا لها شقّة قريبة من الجامعة برفقة فتاة سورية من محافظة السويداء تدرس الفرع ذاته لكن تسبقها بعام دراسيّ واحد.

رقّ قلب فادي قليلاً عندما شعر أنّه أمّن عليها بمعرفته بعض الأشخاص بالسفارة، وبينهم أعزّ صديق له في مرحلة مضت.. وكان يوم الوادع قريبا كغفلة زمن..

لم تحزم شمس الكثير من الأمتعة الخاصّةِ باللباسِ لكنها أخذت مجموعةً من الكتب التي قرأتها سابقاً وأخرى تريدُ قراءتها.

رافقناها مودعين إلى المطار لم أكن سعيدة كما توقعت بل كنتُ في غاية الحزنِ والخوفِ..

حاولت جاهدة ألا أذرف الدموع أمام فادي..

وها أنا استمدّ بعض القوّة من كريم الذي بدأت عيناه ترقصان متأملاً اللحاق بأخته.

Scanned with CamScanner

هو سحرُ السفرِ استحوذَ على أفكاره فمنعه من الانتباه للفراغ الذي سيخلّفه غياب أخته لديه.

أمّا فادي فكان يدّعي الهدوءَ والاطمئنانَ، حيناً يلاطِفُهَا ويمازِحُهَا، وأحياناً ينصَحُهَا، ويكرّرُ عليها كلمات الطمأنينةِ ويشدّدُ على لجوئها لصديقه غسان حال حاجتها أيَّ شيء..

كانتْ شمسٌ تلتقطُ الصورَ بعيون نهمةٍ لا تشبعُ من الوجوهِ والأماكنِ، حتى في أثناء تنفسها شعرتُ أنها تملأ صدرها بروائحنا وبكل ما يعبق حولها باضطراب عاطفي ملحوظ، تخفيه بتصنّع القوّة والفرح. سَرحتُ أستذكرُ طفولتَهَا ومراحلَ نموها، شعرتُ أنّني أحلُمُ كيف تسارعت الأيام بهذا الشكل لِتغدو شمسي بعد فترة ببعدها ذكرى..

كدتُ أبكي حين أعادتني لمسة من يدها إلى واقعي مطمئنة بهمسها سأكون بخير فلا تخافي أمي.

تناولتُ يدَها كانت رطبة و باردة تدلّ على خوفها وبعض الاضطراب فقلت: أثق بذلك يا حبيبتي مشجّعة لها.

حالَ وصولنا إلى محيطِ المطارِ وقبلَ النزولِ من السيارة إلى أرضِهِ أردتُ أن أصرخَ بفادي: ارجع.

Scanned with CamScanner

نظرتُ إليه.. وحين تلاقتْ أعيُنُنَا ابتسمَ بثقةٍ متناولاً يدي بيده وبحنان قال: كلّ شيء سيكون بخير فلا تجزعي لن تشعر شمس بالغربة بوجود صديقي وأسرتِه.

خرجتْ كلماتُهُ بحبٍّ وهدوءٍ، ما جعلها برداً وسلاماً لكنّ دموعي انهمرت ترافقها ابتسامةُ امتنانٍ وضبطِ نفسٍ.

ترجَّلنا من السيارة.

حمل فادي وكريم حقائبها القليلة واحتفظتْ هي بحقيبة ظهر تحوي الجزء الأول من ثلاثية طيور الشوك للكاتبة كولين مكلو وبعض الأشياء الشخصيّة كعادتها.

مشتْ بجانبي خلفَ كريم وفادي، تناولتْ يدي وألصقتْ كفَّها بكفّي شَعرتُ أنَّها تحاولُ أخذَ بعضِ روحي من راحة يدي، هو طقسٌ كنتُ أعزّزُ ثِقَتَهُم بنفسهم به قبل الذهابِ للامتحانِ.

فأغمضتُ عينيَّ تقودني أحاسيسي متمنيّةً أن أستطيعَ نَقلَ كلّ ما أملك لها من طاقة وبعض أنفاسي لترافقها وتحميها.

بسرعة الحلمِ أُنجِزَتْ كلّ الإجراءات ونادى صوت في صالة المغادرين لجميع المسافرين بالرحلة رقم ٢٦٩ المنطلقةِ إلى موسكو بضرورة التوجّه إلى البوابة المخصّصة لهم، ما جعل جسدي ينتفض، رقم رحلتها ينتهي بسنة مولدي وتغير ملامح بلدي وبدء مرحلة

Scanned with CamScanner

الازدهار رغم الحصار، وها هو يتكرّرُ بفرض ظروف على أسرتي الصغيرة وانعطافة لا عودة فيها.

عدتُ إلى رشدي حين عانقتني، كما عانقتْ كلا من والدها وأخيها بغمرة طويلة وقُبلٍ عميقة لم أستطع مَلْء صدري من رائحتها الطفولية.. حين تركتني مبتعدة لوّحَتْ لنا لتأخذ معها قطعة من قلبي فوقفت بحالة ذهول..

انتظرنا برهة لا نعلم ماذا نفعل إلى أن فتح يديه فادي يدفعنا أو يحتضننا لم أفهم لنخرج من المطار قادنا ممسكاً بأيدينا مسرعاً ودون أن يلتفت هو أو نحن إلى الوراء.

جلسنا في السيارة ننتظر بصمت، نترقّبُ مدة ليست قصيرة، إلى أن حلّقت طائرةٌ في السماء بعد صوت هدير منتظم تبادلنا النظرات بابتسامات حزينة مشجعة، ودون التأكّدِ من أنّها طائرة شمس تابعناها حتى غدت نقطة سوداء صغيرة، أدار فادي محرك السيارة وانطلق باتجاه البحر يتمتم أدعية لابنته.

اقترب كثيراً من الشاطئ وأوقف سيارته، أسند رأسه على المقعد مغمضاً عينيه لعدّةِ ثوان.. شعرتُ أنَهُ يبكي في داخله دون دموع ما يزيد الوجع، رَاقبتُهُ بحزنٍ أوهَنَ قلبي، مددتُ يدي أحاولُ مواساتِهِ، فابتسمَ مطمئناً يربتُ عليها بتحنان.

Scanned with CamScanner

ترجّلنا من السيارة، وكلٌّ منّا كان ساهماً يسرح بمكان يغوص فيه بأفكاره، متأمّلاً مدىً يخصُّه، تقدم فادي مني وقال: هذا مكانك المفضل هيا أرمِ أحمالك بالبحر وتزوّدي بطاقةٍ إيجابية، وتمنّي أن تسعدَ ابنتُنا بأيامها وتنجحَ في دراستها..

رميتُ رأسي على صدره أسمعُ دقاتِ قلبِه.. كم تمنيتُ أن أغفو دهراً وأغيبَ عن الكونِ بين ثنايا ضلوعِهِ، كم أحبّ تلك الرائحة من عطر الفهرنهايت الممزوج بعبقِ جسدِهِ الذي يبثّ في نفسي الطمأنينة بمتانة صدره، وسعة مساحته، ودفء نبضه، ضمّني إليه أكثر وصَمت تماماً.

شعرت به عندما حاولَ قطعَ أنفاسِهِ لأسمعَ دقّاتِ نبضه فقبّلتُهُ على موضع قلبه فانتفض جسده، تخلّصتُ من يديه وجريتُ ألحق كريم دون أن أنظر خلفي تركته يهيم مستغرباً مشاكستي لكن لم أبتعد كثيراً حتى تعثرتُ، وعلى الأرض وقعتُ وصَعُبَ عليّ النهوض حتى وصل فادي وكريم يسبقه لمساعدتي ملهوفين يسألان ماذا حلَّ بكِ..؟ بخوف حدَّ الرعب.

- آلَمني قلبي فجأة شعرت كأن سهماً قد اخترقه ما أرهقني فسقطت، أحسُّ أنَّ شيئاً وقعَ مني.

Scanned with CamScanner

همدَتْ قواي، وضجَّ فكري، وبدأتُ أبكي، أخذاني إلى السيارة يحملني فادي كطفلة بين يديه، أرمي رأسي على كتفه واقترحَ أن نذهب إلى المدينة حالاً لزيارة الطبيب.

رفضتُ.. وبشدَّةٍ طالبتُ بالذهاب إلى منزل القرية، ما أفرح كريم رغم توتُّرِهِ، وحال وصولنا سارع يحضّر لي عصير البرتقال وبقيا بقربي حتى هدأتُ تماماً، وابتسمتُ وأنا أطلبُ إحضار ديوان نزار قباني الشعريّ «الحب لا يقف على الضوء الأحمر» انصاع فادي يقول: علاج جميل.

حمل كريم بندقيّة صيده (ضغط) واتجه إلى الحقل يطلق وعوداً أن غدائي اليوم عصافير من صيده هو، تلاحقه نظرات فادي بمرح ساخر وهو يهيئ المكان لمكوثنا عدة أيام سمعت قراره، ولم أعترض وهو يردد: هي إجازة نحتاجُها جميعنا.

وافقته بنظرة شاردة وإيماءة خفيفة وهمست سيخفف ذلك من عبء الفراغ الذي سَتخلفه شمس.

لا تقلقي كل يوم سَنكلمها بالصوت والصورة، ونرافقها بكلّ خطواتها مبدئياً ريثما تعتاد ونعتاد الوضع الجديد وقد جلبت لك مجموعة كتب للمبدع البرازيلي باولو كويلو الذي تعشقين، شاهديها بينما أُحضّر الشاي بالنعناع ما رأيك..؟

Scanned with CamScanner

وغادر وأنا أرقبه بخمولٍ وامتنان .

تناولتُ الكتبَ بغبطة، وأنا أراقب تحركاته التي تبعثُ في قلبي الهدوء والسكينة، وهمست غامزة ما أروَعَكَ يا فادي!

ضحك دون أن يلتفت إليّ قائلاً باعتزاز : أعلم يا غاليتي لذلك سأصبح مغروراً، قالها متّجهاً للفونوغراف لتصدح منه الموسيقى الوحيدة في منزل القرية كإسطوانة " المعزوفة التاسعة لبيتهوفن"..

أغمضت عينّيَّ أجيبه: لن تنجح فأمثالك يتواضعون كلما قدموا ليُسعِدوا فيسعَدوا .

بعد ما يقارب ساعتين سمعنا إطلاق نار كثيف مصدره قريتي ما وتّرني، فبدأتُ أبكي غياب شمس ومعاودة وجعي القديم وذاك الفراغ الأسود الذي أضنى قلبي وابتلعه.

اختلطت مشاعري ولم أتمالك نفسي فأخذني فادي بين ذراعيه وقال: ابكي لا تكبتي دموعَكِ أيتها الحبيبة، قوتك تخبئ طفلة حنونة سترتاحين بعد البكاء .

ابتعدتُ عنهُ وتركتُ يديه اللتين تمسكان بيدي، وتابعت بكائي بصوتٍ مسموعٍ ما جعله يذرف دموعاً صامتة، مسحها ليرد على جواله مبتعداً عني، ودون أن يكلمني تناول مفاتيح سيارته وغادر على عَجَلٍ.

Scanned with CamScanner

فَرغتُ من أنيني بعد فترة بقدوم كريم يحمل بعض العصافير، ويلوح بها منادياً ما رأيك..؟

ابتسمت له وقلت سنعدّها معاً، نهضتُ بتكاسلٍ.

أوقد النار أنت، ونظّف العصافير لأخرجَ بعضَ قطع اللحم الموجودةِ في الثلاجةِ ونُجهز الغداء ريثما يأتي والدك الذي هَرَبَ دون أن يعلمنا أين وجهته.

انهمكنا بالعمل ولم أنتبه لغياب فادي غير المعهود، متجاهلة ضجيج روحي محاولة تناسي ما يعتملْ في داخلي من تآكل واحتراق.

انتهينا من إعداد الطعام ومضت ساعات انتظار فطلبت من كريم أن يتناول طعامه، وبحثت عن هاتفي كانت شاشته تعجّ بالرسائل والاتصالات جميعها من أخوتي تقول:

نزار تعرّضَ لكمين في دير الزور، ولا أخبار عنه حتى الآن، والجميعُ في بيت أمِّهِ، والمطلوبُ أن أذهبَ إليهم لمواساة أهله.

اعتصرتني الذكريات وعدتُ أذرفُ دموعاً حارّةً تحرقُ وجنتيّ وأنا أفتح باقي الرسائل بذهنٍ صاخبٍ وثقةٍ موجعةٍ أنّ نزار أفل، وأدركتُ أنَّ ما سقط من قلبي وآلمني على الشاطئ ما هو إلا وجعُ نزار، متذكّرة يوماً مضى من سنين حلمت أن أحدهم أوسعني ضرباً

Scanned with CamScanner

وفي الصباح علمت من والدي أن نزار في المشفى بسبب اعتداء تعرض له من مجهولين في أثناء خروجه من أحد المقاهي الليلية. وأخذ شريط من الذكريات يلفّ بي حيناً بتناغم وحبّ، وأحيانا أخرى بخلافات واضطرابات، بفوضى شتّتت أحاسيسي ما أوجع قلبي، وبدأتُ أهذي:

ليس من حقّك أن تغادرَ هكذا وتترك ظلمةَ الكونِ تُحيطني، الآن علمتُ كم عشنا جبناء حيث التقينا مراراً وتناجينا دون أن نتجرأ على الاعتراف، كيف سارتْ بنا السبل للفراقِ، رغم كلّ الحبّ الذي كنزناه متجاهلين بغباء لعبة القدرِ.

كيف تجرأتَ على الرحيل دون أن نتبادل القبلَ كما التهم فأخبرك كم أحببتُكَ، وكم خنتُكَ وكم اشتقتُ إليك وذرفتُ دمعاً للُقياك.

ما أظلمك أيها القدر! حين جعلتني غريبة عنه لدرجة أنّي لن أستطيع وداعه قبل أن يتوارى إلى الأبد، أو أراه وأقبّله مناجية أشواقي إليه، أُشبعُ حنيني وأرتمي عليه، وأتقبّل تعازيه إلا مِمّن خنتُهُ معه، يواسيني بصمت أعلم أنه يؤذيه.

تفتقت ندبات روحي جميعها بلحظة واحدة، وبدأت توجعني وتعذبني لِتُصبحَ حرقةُ قلبي لا تحتمل، وضاقَ صدري إلى حدّ

Scanned with CamScanner

الاختناق، وجفَّ حلقي، فما عدتُ أستطيعُ الكلام، تثاقلتْ حركة جسدي فبتُّ كالمشلولة عاجزة حتى عن البكاء.

هامت روحي وشعرت أنها تغرب مفارقة جسدي المنهك لولا استيقاظي على صوت خائف ناداني من عمق سحيق:

ماما....

فعادت روحي كومضة حين أخذ كريم يصرخ باكياً ويهزّ جسدي، أشعرتني ملامح وجهه بالعذاب ضَممته بإرهاق مطمئنة إياه أنني بخير حتى هدأنا معاً متعانقين صامتين بشهقات مكبوتة.

قطع الصمت بسؤال: هل ستبكين إن رحلت أنا أيضاً..!؟

ألم يقل والدي أن شمس ستكون بخير..!

أم تزاعلتما من جديد للسبب نفسه.

ابتسمت له وردّني حديثه إلى واقعي..

يجبُ أنْ تستمرَّ الحياةُ مهما فقدنا وتألّمْنا فهي تحوي أموراً رائعةً وأحلاماً يجب السعي لتحقيقها، وأنا معتادةٌ على الفقد لماذا ضعفت الآن..؟ ألا يستحق صراع البقاء شجاعتي..!

أغمضتُ عينيَّ، واستنشقت ملء رئتيّ هواء وزفرته على مهل، حتى استجمعت قواي وهدأت روحي رغم وجعي وكبر فقدي أجبته: كلّ منكما لي عين، أرى بكما الكون وجماله.

Scanned with CamScanner

ونهضتُ أبحثُ عما أرتديه لأواكبَ أخواتي في بيت أم نزار وقلتُ جهّزْ نفسَكَ بني سنذهب.

لم أر ثوباً أسود إلا فستاناً كنتُ قد عدلت شكلَهُ ولم ألبسه منذ زمن طويل من الكريب الأسود وأكمامه الشيفون المفتوحة من الأعلى عند الكتف حتى المعصم لولا وسعه في الأسفل لكان يصلح لحفلة عشاء.

ارتديته ورفعت شعري بطريقتي المعهودة ككعكة، فبدا حزني شامخاً ببساطة، كأميرة فقدَتْ ملكها، هذا ما حاولت أن أقنع نفسي به، وذهبت بصحبة كريم إلى القرية..

دخلتُ مجلس العزاء كأنّي في حلم، وهذا جعل ردّ فعلي عادياً، وفي أثناء دخولي تجدّدتْ موجةُ انفعال وبكاء حارٍ ونحيبٍ مسموعٍ، لم أميّز إلا صوت أم نزار وكلاماً لم أستوعبه لانشغالي بتلاوة بعض السور القصيرة، ولأقوّي نفسي كررتُ الفاتحة مرات عدّة لأنّني نسيتُ بعض كلماتها من شدة توتري وضياعي.. جلستُ بصمتٍ مطبقٍ تُحيط بي أخواتي.

كنتُ غريبةً عن المكان، شعرتُ أنّي في مركبٍ آمنٍ ضمن بحرٍ من السواد، أذرفُ دمعي دون أن أفقدَ صلابتي، تجدّد العويل،

Scanned with CamScanner

وعلا صوت البكاء بدخول فادي مسرعاً يسأل عني بلهفة، متجاهلاً التقاليد بعدم دخول الرجال تجمّع النساء.

تلاقت أعيننا فنهضتُ، تعانقنا كمسافرين التقيا صدفة بعد طول غياب، بدا وجهه مرهقاً وعلى ملامحه آثار بكاء، تابعتُ بكائي بصمتٍ، إنّه يضمني بشدّة، وحنان من يريد حجب الخارج عني، قلت له مُطمئنة أنّي بخير.

لم يكن صوتي ذاك الذي خرج من حنجرتي، ابتعدت عنه قليلاً لأرى وجهه من جديد، وهو ينظر بعينيّ، فيعلم أنّي تجاوزت الأمر بعدم تصديقه، كأنّي مُغيّبة، وتابعت: بعد ساعة تعال خذني إلى البيت ورحت أربت على كتفه لتأكيد ذلك.

خرج معتذراً من الجميع، وعدتُ أنا لصمتي متجاهلةً العيونَ التي ترمقني، والهمسَ الذي يوخزني كقول إحداهن:

- ليتَهُ تزوّجَ وأنجبَ طفلاً يحمل اسمه.

سرحتُ مبتعدةً بجنون أسئلتي كيف لهم أن يتمنّوا ما يوجعُ الآخرين كفقدِ حبيبٍ أو يُتْمِ طفل..؟

لو تزوجنا هل كنت أنجبت كريماً..؟

كيف ستكون ملامحه فولدي يشبه عمّه كثيراً..!

Scanned with CamScanner

هل كان سيشبه نزارا.. أغمضت عينيّ أتذكر ملامحه لأطابقها مع ملامح ابني كريم.

ذاك الفم المثير تعلوه شوارب ذهبية دائماً يلامس أطرافها بلسانه بطريقة شهوانية، وتلك العيون البنيّة الغريزيّة التي تخلو من الإنسانية غالباً ما تشبه كائنات حسب حالته النفسية.. وبشرته القمحيّة وشعره الأجعد بلون فاتح يعطيه غرابة وازدواجية، وجسمه المربوع بمنكبين عريضين وساقَي رياضيٍّ، فهو يعشق كرة القدم والسباحة التي يمارسها حتى في أيام الشتاء.

ضجّت روحي، وتأجّج شوقي، ولولا صوت أختي لضعفتُ، وبكيتُ وانهارتْ قواي، نادتني: عليا، عدت لواقعي أنظر إليها وأسمعها تقول:

- فادي بانتظارك على الباب.

خرجت مودعة أم نزار دون أن أنظر لأحد، وغادرت لملاقاة فادي، وأنا أضمر في داخلي عدم عودتي للعزاء مرة أخرى.

كان كريم واقفاً يُمسك باب السيارة الأمامي، وحال صعودي أغلقه، وجلس في المقعد الخلفي. نظر إليّ فادي مبتسماً بحزن جليل ربت بيده على كتفي، وانطلق يقصد كوخنا.

Scanned with CamScanner

لم نتطرق للحديث عن استشهاد نزار أبداً ولم نتبادل الحديث فيما قد جرى كأنّ الحادثة من ماضٍ سحيق..

كل يوم يذهب صباحاً إلى العزاء قبل ذهابه إلى عمله، ويعود ظهراً ليرتاح قليلاً، ثم يرجع في المساء يقضي بعض الوقت في مجلس العزاء، مواسياً أم نزار، حتى انقضت أيام العزاء الخمسة استمر الناس بالتوافد على أمل جلب الجثمان دون جدوى، فبقي الجرح مفتوحاً بالنسبة لأهله، وخصوصاً والدته التي ترفض فكرة موته، وتقول: يمكن أن يُعذّب ويغيبَ عني لكن لا يمكن أن يموت، أنا أشعر بذلك وسأنتظرُ جثمانَهُ أو حضورَهُ، سيعود وأزوّجه.

أما أنا فكان قلبي يضجُّ وجعاً، وذكرياتٍ، وفوضى أملٍ، واحتراقاتٍ، وخوفاً يتعاظم من فَقْدٍ قادمٍ وكرباتٍ. ما استطعت الاستقرار، ولا استطعت تحديد شعوري في أيّ أمر، فقد فقدتُ نزار من زمانٍ وخساراتي تستمرّ.

هل حقاً نُعاقب..؟

على ماذا..! إن كانت أقدارُنا مسجلة كما يتوهمون..

حياتنا حلمٌ مجنون.

أقبل فادي مسرعاً، يُخبرني أن شمس بخير تقضي أياماً جميلة بصحبة زياد وصديقتها الجديدة لمى، قبل بدء دوامها، وعند

Scanned with CamScanner

الخامسة مساء، بتوقيتنا ستكلمني بالصوت والصورة ليطمئن قلبي.

فنسيت كلَّ همومي وأسرعتُ أحضّر نفسي لملاقاتها خرجتُ إلى الحديقة جمعت الخضار وصنعت عجينة لأجهز البيتزا، متجاهلة ابتسامات كريم وفادي وغمزهما الساخر حتى صرخ كريم مبتسماً ماما: شمس لن تأتي بل ستتّصلُ وضحكا بخبث.

ابتسمت لهما دون أن أجيب متابعة عملي حتى الرابعة والنصف، بعد أن أعددت البيتزا، وأنواعاً من الفطائر والتبولة باتت مزينة مع قالب كيك بالشوكولا أخذت حماماً، وارتديت ثوباً داكناً بنفسجي اللون واسعاً وفي الخامسة كنا نجلس أمام شاشة "اللابتوب" ثلاثتنا، ننتظر بفارغ الصبر، وحال ظهور شمس وصديقتها رقص قلبي طرباً، وفاق شوقي لاحتضانها كلَّ حدٍّ، فبكيتُ، كم أرغبُ بلمسها.

أخذتْ تطمئنني أنّها بخير، قائلة لم يتغيّر عليّ شيء إلا وجودكم، وطعامك الشهي، وراحت تتلمظ وتُصدر أصواتاً تعبّر عن لذّة طعامي.

فأخبرها كريم ماذا فعلتُ، وأخذا يضحكان مع لمى وزياد وشاب اسمه كميل، بدا متزناً وابتسم بهدوءٍ، سلّم علينا وانصرف

Scanned with CamScanner

عن الشاشة.. لم أخبرها بما جرى لنزار، ومن شدّةِ فرحها بنا لم تلحظ حزني أو أنا نسيته من فرحتي بها.

تحادثنا بالعموميات..

سردتْ بعض الأحداث الطريفة التي حدثتْ معها، أشادت بصديق والدها وابنه، تلفتتْ باحثة عن كميل بعينيها وشرحت اهتمامه البالغ بها وتفاصيل مساعدتهما لها، ودّعتنا وهي تهزّ رأسها لنصائحي وتعليماتي بأن تهتم بنفسها وطعامها، وتتّصلُ كلما سنحتْ لها الفرصةُ.. كما أوصتني بنفسي ومتابعة مراجعاتي للطبيب بانتظام وشدّدت على التزامي بتعليماته، وقالت لكريم أنْ دراستِكَ بمعدّل جيّد لتأتي وترى جمال الروسيات، وغادرت تاركة فراغاً رغم فوضى مشاعري وازدحام أفكاري.

حضّرَ فادي عصيرَ البرتقالِ، وتجمّعْنَا لتناولِ ما أعددتُ من طعام، ثم رحنا نتحدّثُ حول لمى وزياد، وأوضحَ فادي أن كميل هو الابن الوحيد لصديقه..

شابٌ لطيفٌ درس الجراحةَ العينيّةَ، طَموحٌ مُجدٌّ استحق الجنسية لولادته في روسيا، حيث كان والده موظفاً صغيراً في السفارة، ليتقلّد بجهدهِ ونشاطهِ منصباً مرموقاً.

Scanned with CamScanner

تتالت الأيامُ واستمرّتْ اتصالات شمس، وأخذت بالتباعد كلَّ حين، واجتهد كريم بدراسته على أمل السفر يمازحني سأجلب لك شقراء فائقة الجمال.

وبعد مضيّ ما يقاربُ الستّة أشهر كلّمتني على هاتفي المحمول، اطمأنّتْ عليَّ، وكانت متّزنةً جدّيةً على غير عادتها ما أثار هلعي، فصبرتُ حتى قالت: زيادٌ غيرُ جديرٍ بي، فقد اكتشفتُ أنّهُ يرافق فتاةً روسيّةً ويساكنها مبرّراً ذلك بتعليمها له اللغة الروسية، ويبادِلُها هو بتقوية لغتها الانكليزية.. كانتْ قد قرّرَتْ أن تتركَهُ رغمَ حبِّهَا له ما أوجعني، لبعدي عنها، وجعلني صامتة أستمع فقط، ألعَن بُعدي عنها وظروفي..

نَطقتُ بعد حين لأقول لها: حَكّمي عقلَكِ دونَ أنْ أفكرَ بصدى كلماتي، كأنّها كانتْ تنتظرُ تلكَ العبارة.

فأجابت: نعم.. هذا ما يجبُ أنْ يتمَّ وأغلقت بكلمات وداع على عجل..

لم أوضحْ لها أنَّ العقلَ يفسِدُ الحبَّ ويَظلِمُ القلبَ، أو أنْ أبرّرَ لهُ لوجودهِ في مجتمع منفتح تختلف عاداته عن مجتمعنا وأنَّ أغلبَ شبابنا يتعلمون اللغة بمساكنة الروسيّات.

Scanned with CamScanner

وفجأة خطرَتْ أمُّ نزار على بالي فارتديتُ ثيابي الرياضيةَ واتجهت أقصد القرية سيراً.

كانتْ جالسة أمام البيتِ تحتَ شجرةِ الجوزِ الوارفةِ تقطفُ أوراقَ النعناعِ لتجفّفها، فَرِحتْ كثيراً بحضوري، ضمّتني بحبٍّ، وطلبتْ بلهفةٍ أنْ أجلسَ متأملةً شكلي تقول:

أراكِ كالعادةِ جميلةً لكنّكِ حزينةٌ، هل أنت وأولادك بخير؟

أخبرتُها بسفر شمس في اليوم نفسه الذي وصل فيه الخبر المشؤوم، وقبيل ساعات منه، طمأنتني لا تحزني ستكون بخير كما سيعود نزار ثقي بذلك فهي شابّة متّزنة و قويّة.

تجاهلت قولها وسردت لها قصصاً فرحة ومقتطفات من حياتي قد تسليها.

دعتْ لي بالسعادةِ والفرحِ الدائمين، مدحتْ فادي وشهامَتَهُ، وتابعت تدعو لنزار أن يعود سالماً، وأضافت بعينين تلمعان ثقة إن عاد سأزوّجه وأُسمّي أول مولود له إن كانت بنتاً عليا وإن كان صبياً علي تيمّناً باسمك وابتسمتُ بتواطؤ.

أكملنا قهوتنا وهي تردّدُ: سيعودُ.. سيعود، تهزُّ رأسها بإيماءةٍ كمن يؤكّدُ قوله، وتُسرع بقطف الأوراق لتفوح رائحة النعناع، وعندما نهضتُ للمغادرة قالت باستعطاف لا تغيبي عنّي

Scanned with CamScanner

فأنا أقوى برؤيتك، وأسعدُ بحضورك، أنت من رائحة الغوالي..
ابتسمتُ بخجل، وعدتُ أدراجي إلى بيتي دون أن أزور أمّي أو أخوتي مسرعة الخطى، أفكّر بتلك المرأة التي تشبه زهر الزعفران، فهي تلوّن الأيام، وتُطعّمها بالطيب والحنان رغم ما تكنّ في داخلها من أوجاع وأحزان، تَهب الأمل من لدن الألم.

هذا حال الأمهات القويّات، كما قال عنهنّ درويش:

"القويّات هنَّ الجميلات".

عندما وصلت كنت منهكة أتصبّب عرقاً، وفادي أمام البيت يحمل هاتفي ملّوحاً به ويسير ذهاباً وإياباً منفعلاً:

- متى ستعتادين حمل هاتفك؟

دخلت الحمام على صوته معاتباً: أين كنتِ..؟

ذهبتُ إلى البحر..

اعتقدتك هناك، قلقت جداً عليك، أرجوك احملي جوالك أينما ذهبت لأجلي لا لأجلك!

شردت على صوته أفكّر..

تغيّر فادي بعد غياب نزار، بات متوتّراً يحاصرني حيناً، ويبتعد أحياناً.. أبسبب فقد صديقه العزيز أم لزوال خطر فقدي؟ فغدا الآن دون منافس.

Scanned with CamScanner

بعد زيارتي لأم نزار، كبر أملي بعودته، فزاد صمتي، حتى اعتدت على تجاهل انفعالات فادي، راجية من أعماق ذاتي رجوعه، لا لأنه حبيبي، بل لأجل أمه التي يمدها انتظاره بأمل الحياة، ويعزز بداخلها قوة البقاء.

تتالت الأيام، روتين وصمت، كلّ منا منشغل بذاته. فادي بأعمالِ تجارته الجديدة، متناوباً بين التجارة وأشغال الحقل الذي أخذ يعتمد على بعض العمال فيه، ما أفقده أهم طريقة لتفريغ انفعالاته، مستمراً بجفائه مع الحفاظ على أواصر الاحترام بيننا.

وكريم يوزّع وقته بين دراسته والنادي الرياضي، أراد أن يبني جسمه كما المشاهير فزاد ساعات التمرين وبات يحضّر طعامه بنفسه معتمداً على سعاد، متأملاً مغادرة البلد عند إتمام مرحلته الثانوية، وحصوله على الشهادة، واستعداداً لذلك التحق بمعهد لتعليم اللغة الروسيّة يتحدث بالأمر كأنه تم متجاهلاً وجعي ورأي والده ما خلق بعض التنافر بينهما فلا يتفقان إلا ما ندر، ويبدأ الشجار فادي يخطّط لأن يتابع ابنه جميع أعماله من بعده، وكريم ينسج أحلامه بعيداً عن ذلك..

وغالباً أكون الحكم بينهما يسكتان كرمى لي فينتهي شجارهما..

Scanned with CamScanner

أما أنا فكنت بين كتبي وأوراقي المبعثرة، أعيش لحظات تأملي، ما جعل وزني يزيد، وقَلّت همتي على الرياضة اليومية كما ابتعدت عن متابعة أخبار أم نزار.

أما شمس فقد تباعدت اتصالاتها، وهذا دليل انسجامها مع محيطها، فالأولاد لا يتذكرون أهاليهم إلا عند الحزن والخيبات، وهذا ما رَبيتُ ولديّ عليه، أن يعودوا لحضني وقت الكَربات.

بتّ أرقب حالاتها ونشاطاتها من خلال متصفحها على الفيس أو الانستغرام.

هذا العالم الذي بقدر ما فتح أبواباً مجهولة، ويَسّر الوصول إلى معارف مأمولة، وأشبعَ ما في النفوسِ من جوعٍ مختلفِ الأنواع، بقدر ما سلبنا لحظاتِ أُنسٍ كانت تغذّي أرواحَنا وتُغني نفوسَنا، فقد أخذ بعضنا من واقعه المرّ إلى الوهم المضني، وجعل البعضَ يَعرِضُ حياتَه الخاصّة بقناعٍ زيف هزلي، وآخرين يُعبّرون عن أفكار لم يجرؤوا يوماً على البوح بها، فاستخدموا أسماء مستعارة، ما أعطاهم جزءاً من الحريّة لم يحلموا بملكيته يوماً. كما أنّهُ أشبعَ للبعض حتى رغباتهم الجنسية، مسبّباً خلافات عائلية كبيرة ضمن الأسرة.. كلّ بحسب أهوائه واهتماماته.

هذه ضريبة الحضارة وانعكاس ثقافة الشعوب.

Scanned with CamScanner

بدأتْ أحوالُ فادي الماديّةِ بالتحسّنِ والازدهار، وأخذتْ الأيامُ تسرُقُهُ مني، قَلَّ اهتمامُهُ بي، وزاد بنفسه ما أشعرني بدخول أنثى إلى حياته، توجَّعتُ من ذلك رغم محاولاتي السابقة معه لخوض علاقة، ورفضه الدائم فقررتُ الصمتَ وتجاهلَ الأمرِ.

فالزواجُ اتفاقٌ تامٌّ أمامَ الله، وليس ورقة تقيّده، فليسعد بما تبقى من حياته، هذا ما كنتُ أقوله دائماً، لكنْ أنْ يصبح واقعاً! فقد جرحني، كابرتُ وتركتُ له حريّته، متواطئة معه دون اعتراف، فبدأ الحزن يدخل قلبي ويتجلّى على وجهي، ولم يكن لي نافذة نسيان إلّا معاودة الاهتمام بأم نزار وزيارتها بشكل دوري، أخفف عنها، وأشبع شيئاً ما بذاتي.

مضتْ سنةٌ على غيابِ نزار ومازالتْ والدتُهُ تدعو له بالعودة، وتتحدث عنه كأنه على سفر فانتقل إليّ الأمر ونما رجاء بداخلي يستحضره.

عدتُ إلى بيتي، ولم يفارقني طيفُهُ حتى المساء، وبدلَ مناداتي لفادي باسمه ناديته نزار، فضحك باستهتار وقال:

- هل امتلأ ذاك الثقب الأسود وطفت أحلامك على سطحه.

- نعم أيها العزيز سهوت بغفوة، فجاءني نزار بلباس بدويّ رثّ، حافي القدمين، يركض باتجاهي، وعندما جريت لملاقاته،

Scanned with CamScanner

انحرفَ عني ليحتضن أمَّهُ، عانقها وهو ينظر إليّ مبتسماً، وأنا أمدّ يدي إليه بصفاء نفس وقلب راضٍ.

جلس فادي قربي وضمّني بحنان وعطف صديق قائلاً:

- أتفتقدينه وتشتاقين إليه؟

- لا يا فادي لكن إحساساً غريباً في داخلي يناديه.

- إنْ عادَ، هل تعودين إليه..؟!

- بالطبع لا، سأسعى لأن يتزوجَ، فيؤسّس أسرةً ويكون مع أخرى.

- هل تتمنين لي السعادة كما تتمنيها دائماً له..؟

- بالطبع أيها المحبوب لكن.. هل تريد أن تكون مع أخرى..!

ضحكنا بتوتر وغادر بعدما طبع على جبيني قبلة.

أردتُ أنْ أستوقِفَهُ وأغمرَهُ.

أنْ أقبِّلَهُ من فمه، أشتَمَّ عبقه.

لكني امتنعت وأغمضت عيني، حتى لا أراه مبتعداً وأناديه..

أبكي غيرتي سرّاً وأبتسم بالعلن.

Scanned with CamScanner

أفكر حيناً أنّي واهمة، وأحياناً أذهب بعيداً، هل أرتّب أمراً ما يناسبني لقادم مجهول.. لم أعدْ أدركُ تَبدلاتِ قلبي وضجيجَ أفكاري، هل تأثرت بتغيُّر شكلي، وسمنتي أضعَفَتْ ثقتي بنفسي.

سأنظّم وقتي بين رياضتي ودراسة كريم، فامتحاناته اقتربت ويجب أن أتفرّغ له كُليّاً.

وفجأة عاد حزني لشعوري بقرب مغادرة كريم، سيسافر كما أخته، ويحقّقُ حلمَهُ، متجاهلاً ما أحلُمُ به أنا من تواجدهم حولي في أثناء موتي.

تنهدتُ وقررتُ الذهاب إلى البحر، وبداية رياضتي اليومية، أخذت جوالي، سلكت دربي المعتادة وغادرت مهرولة، لأبدّد شكوكي وأفرغ طاقة حزني بإجهاد جسدي فيتلاشى كَربي.

غبتُ عن أمِّ نزار ما يقارب الشهرين، بسبب امتحانات كريم، وكانت تتّصلُ بشكلٍ يوميٍّ لتطمئنَّ على سير امتحاناته، ووعدتني بوليمة فطائر من صنع يديها عند عودتي للقرية بعد انتهاء الامتحانات.

هاتفتني في آخر يوم من الامتحانات، تذكّرني بذلك واتفقنا على اللقاء في منزلها وقت الغداء مع أسرتي وأسر بناتها.

Scanned with CamScanner

كان الاجتماع أسرياً جميلاً يفتقد مظاهر الحزن، له طابع الفرح ولَمّة الأحبّة، شردتُ أتذكرُ نزاراً وشعوري بفقدهِ، وإذ بفادي يضمّني من الخلف ويوشوشني: ما بها حبيبتي أين تأخذك أفكارك..؟ وأضاف: أعلم أنّ لهذا المنزل عِمقاً يَنسجُ أحلامَكِ ويستحضرُ أشباحَكِ.

قبل أن أجيبَ صمت الجميع على صوت رنين الهاتف المنزلي.

ردّت أم نزار بهدوء: نعم يا بني أنا أم نزار من تريد؟

أخذت تشهق وتبكي وتضحك وتهذي فأخذ زوج ابنتها الكبرى سمّاعة الهاتف عنوة بعد أن فقدت وعيها والتفت حولها بناتها وانهمك فادي يتصل طالباً الطبيب لأجلها.

ابتعدتُ عن الجميع بقلبٍ مطمئنٍ، يدرك ما حدثَ فلم أسأل وعادتْ ندبتي توجعني، وقلبي يضجُّ حيرةً بين حزنٍ وفرحٍ، ما بالك أيّها القدر؟ تلاعبني! أما بقي غيري في هذا الكون لتزلزلني! ولتعيد ارتداد الهزات فتؤلمني.

جلستُ وحيدة تحت تلك الشجرة التي تقابل بيتَ أمِّ نزار، أجترُّ ذكرياتي وما مضى من حياتي، وأرتّبُ قراراتي.

Scanned with CamScanner

كان نزارٌ قد خرجَ من حياتي بخبرِ موتهِ، وأخذَ معهُ بعضاً من فادي، لذلك قرّرتُ أنْ أستعيدَ بقايا ما بيدي، وأغادرَ تلك التأملاتِ، وحتى الذكريات، وأُعيدَ الاستقرارَ لمملكتي.

تنبهتُ على صوتِ جلبةٍ، وسياراتٍ وبعضِ الأفراد، عدتُ لأستطلعَ الأمرَ.. كانَ هناكَ بعضُ النافذين من الأصدقاء والأقارب، يودُّون التحقّقَ من صدقِ الخبرِ، ومكان تواجد نزار، وكيفيّة إعادته مهما كلّف الأمر.

فالدولة ترفض مقايضة أيّ عنصر منفرداً أو مجموعات مهما بلغ عددها مع المسلحين .....

.....

وانتشر أنَّ المجموعاتِ الإرهابية كانتْ تبيعُ الأسرى فيما بينها كعبيدٍ أسوةً بعهدِ الفتوحاتِ وأيامِ الغزواتِ والجاهليّة الرجعيّة، وتمارسُ عليهم التعذيبَ والعقوباتِ، هذا بالنسبة للرجال والأطفال، أما النساء فكانت معاناتهنّ أكبر إذ يتمُّ تزويجهنّ لمسلحين عنوة لكونهنّ سبايا، وكنّ يبعْنَ كجواري كما في الجاهليّة الأولى وما تلاه وفق شرع تاريخ مضى، وأعراف تنظر إلى المرأة كما تنظر إلى أيّ حيوانٍ أو سلعة.

Scanned with CamScanner

انسحبتُ مع فادي بعد أنْ عرضَ خدماته وما يمكن أن يقدِّمَ، وغادرنا معلنين أننا سنبقى على اتصال مُتمنّين العودة السريعة لنزار وتيسير الأمور.

رافقني صوت أم نزار تناديني: ألم أقل لك يا عليا أنه عائد.. ابتسمتُ لها وخرجتُ وأنا أتمتم: الحمد لله.

في طريق العودة كان فادي يردّد: عاد نزار.. هازّاً رأسه إلى الخلف والأمام، أرجو أن يكون بخير.

ترقبني منزعجاً ثمّ سألني فجأة: ما بالك هل أزعجَكِ أم أفرحَكِ رجوعُهُ..!

صدمني السؤالُ وأسلوب الكلام، فأجبت بانفعال:

- حتماً أفرحني، وعزّزَ ثقتي بضرورة إصلاح ما بيننا يا فادي.

وضعتُ يدي فوق يدهِ ليثقَ بصدقِ كلامي فلم أشعر بدفئها المعتاد، ولم ينطق أو يصدر عنه أيُّ ردٍّ فعلٍ كأنه لم يقتنع بما قلتُ، أو يرغب بجواب آخر.

Scanned with CamScanner

وحال وصولنا إلى بيتنا الريفي داعبني كعجوز، ومارس حبّه معي ببطء وبرود يخلو من الإحساس، وكأنّ الأمرَ مفروض، يعمّ تصرفاته الشرود فلم أسعد معه وأعتقد أني لم أُسعده.

أعطى كلّ منّا ظهره للآخر، فملأ قلبي الحزن ورغبت لو نفسي تسمح لي بمواجهته واحتضانه وسؤاله ما الذي أقصانا عن بعضنا البعض؟

وزرع أشواك الغربة بيننا..

التفتُّ لأواجهه وإذ به يلتفت بذات اللحظة وفي عينيه نظرة تفيض كلاماً، وضع يده على كتفي واقترب يقبّلني على وجهي كيفما كان بشغفه المعتاد ويهمس أحبّك وأحببتك دوماً ولم أخن نزار يوماً محاولاً إعادة الكرة بحبّ ورغبة..

أبعدته قليلاً وتراجعت لأنظر بعينيه الحائرتين متسائلة: "ومن قال إنك خنت نزار؟ أنت كنتَ خياري الأفضل، وقد كان من المستحيل أن أختاره هو سابقاً، أو حتى الآن، أنت تكمّل شخصيتي، وأنا كما تقول الأساطير من ضلعك أنت".

ابتسم بحسرة معدّلاً جلسته وهو يشيح بوجهه عني ويرنو بعيداً، كانت "نبال" من طلبت مني أن أخبر نزار بمرضك، ليصمت برهة و يتابع:

Scanned with CamScanner

" عندما التقاك على الشاطئ شعر بتغيّر كبير بشخصيتك، ما أقلقه عليك، فواعدها ليقضيا وقتاً ممتعاً كما تعرفين ويسألها عنك، ويشكو لها حبّه لكِ وعدم نسيانه إياك، وحلمه بقضاء ما تبقى من عمره معك. وأنا أؤمن أن الزواج نصيب، لكن الفراق قرار فأردت أن تختاري لتملئي ذاك الفراغ الأسود الذي يعذبك، فأنا أحبّك أكثر من نفسي وأريدك سعيدة وغصّ يغمض عينيه.

وضعت يدي على فمه "لا تكمل!" فأخذ يقبّلها، ضممته إلى صدري: خُلقنا لنكون معاً أيها المحبوب. أبعدته ونظرت بعينيه ثانية وقلت بحزم: أما نبال فهي تحبّكَ أنتَ، وقد أرادت أن تحظى بك أنت لذلك تسعى لفراقنا لا كرمى لنزار. إنها تهدف بما تفعل إلى أن أعود أنا لنزار، وهي تأخذك متجاهلة كل ما بنينا، وما قد يسعدنا أو يدمّر أسرتنا.

لم يتفاجأ مما قلت، فتابعتُ: أنت سبب خلافي معها ذاك اليوم، اتهمتنا بخيانة نزار وأرجعتْ عدم استمرار علاقته بي لاكتشافه ما بيننا دون أن يعلم هو عن ذلك شيئاً إلا ما ألّفته هي بخيالها.

وضّحت لها أنّها واهمة، وأن حبّك لي كان صامتاً، حتى تأكدتَ من قراري بعدم العودة لنزار بتاتاً، وبعد مضي عام على

Scanned with CamScanner

انفصالي عنه صارحتني أنت بحبّك وكان ارتباطنا حينها، وقد قسوت عليها إذ قلت لها بسخرية:

- هكذا هي الحياة، نُحبّ من لا يريدنا ويحبّنا من لا نريد، على قولة عبد الوهاب "بفكّر باللّي ناسيني وبنسى اللّي فاكرني".

فامتعضت ورغت وأزبدت، وكانت تلك القطيعة بيننا، القطيعة المشوبة بالجفاء والكره من قِبلها.

كنت قد شعرت بوجود امرأة أخرى بحياتكَ ما أوجعني.

هل غياب نزار حرّركَ من حبّي لتنساق لأحضانها..!؟

أطرق حزيناً: " كانت لعوباً أدركتُ ذلك متأخراً قليلاً غايتها الانتقام"، جاءت كلماته كصاعقة شلّت تفكيري فأشحت بوجهي عنه ليتحرك ويواجهني.. راودتني مستعينة بسرد قصتها مع نزار، دائماً تدعوني إلى مكان عام إلا في ذلك اليوم كان موعدنا في شاليه يخصّ إحدى صديقاتها، ظننت أنّها معها ترافقنا عند وصولي كانت شبه ثملة بثياب البحر، ناولتني سروالاً، وطلبت مني أن أبدّل ثيابي لنسبح مشيرة لغرفة داخلية عندما خرجت أرتديه اقتربت مني ولامست جسدي وعضلات زندي تمرّر إصبعها على شفتيّ باسمة تترنح بشهوانيّة مبالغة.

لستَ مضطراً لتكمل قلتها بنزق..

Scanned with CamScanner

أردف بترجّ: أقسم أنه لم يحدث بيننا أي شيء، خرجتُ مسرعاً أهرب منها، وهي تضحك بصوت مرتفع متصنع رافقني وقبح ملامحها الشيطانية، وهي تحاول تقبيلي حتى وصلت إلى الكوخ بدلت ثيابي، وأعطيت ذلك الثوب لأحد العمال.

بعد أيام تلقيت منها رسالة تقول أنها سافرت إلى زوجها في الكويت، واستلمت ثيابي التي أرسلتها لتخلق بيننا مشكلة..

- نعم تعرفتْ عليه من خلال شبكة التواصل الاجتماعي، هو لبناني طلّق زوجته من سنين متكفلاً بمصاريف أولاده يأتيهم في الإجازات السنوية، ويقضي أغلبها بسورية يعمل مديراً لشركة بناء خليجية.. سترضيه ويرضيها، إذاً خدَمَتك الصدفة ضاحكة إذ أنت من استلم ثيابك، ما أقبحها!

كانت تريد أن تتجاوزك بعد غياب نزار، هذه هي نبال قبل الحرب، لتأتي ظروف وتجعل ما في النفس يطفو دون إحراج وكرب، وتبرير انحرافها عن الدرب.

كانت شمس تُبلي بلاءً حسناً في دراستها، وتقضي أغلب أوقاتها مع كميل وأسرته، ما جعلني، أرتاح لتجاوزها قصة زياد.

هكذا هي الحكايات تنتهي ببداية أخرى...

Scanned with CamScanner

ما هي إلا شهور حتى كلّمنا والد كميل من مكتبه بالسفارة، وهو بصحبة شمس وولده، وأعلن قدومهم مجتمعين بأقرب إجازة.

فرحنا بالخبر كثيراً، وعلمتُ أنّ مجيئهم ما هو إلا إعلان لطلب شمس رسمياً، شعور جداً أخافني رغم ما لمحته بعينيها من فرح، وما رأيت بينهما من انسجام، وكيف يعاملها بحبّ ودلال ليتجلّى على وجهها الاستقرار، هكذا هي البدايات تأتي أحياناً كجريان ماء نهر، بسهولة دون اعتلال.

قررتُ الصمتَ، ليكون لها الاختيار.

ما أسرعك أيتها السنون ها قد كبرت شمس وها هي على استعداد لتأسيس أسرة كما فعلتُ أنا متجاهلة كل حوار جرى بيننا عن فوارق المجتمعات وفشل مؤسسة الزواج على اختلاف رقيّها إذ يتماهى أحد الطرفين ليسير المركب بأمان إلا ما ندر يتفقان على توزيع المهام لإنتاج أسرة نموذجيّة كما نحن.

هي تسير على خطاي، أخفق حبها الأوّل رغم عمقه في قلبها، لتعود وتختار وفق العقل من كان الأفضل ومن أحبّها أكثر وكنّت له الاحترام، نعم ينجح من يتبع عقله أمام الجميع لكن يبقى في داخله غصّة قلب ومُعاناة، وفيما بعد غالباً إحساسٌ بشيء من الغربة.

Scanned with CamScanner

تمتلئ الروح وجداً والنفس طاقة بعودة من نحبّ، هكذا شعرت حين تذكرت شمس وموعد حضورها.

ما هي إلا أسابيع، حتى حلّت عطلة عيد الميلاد ورأس السنة، وقَدمت شمس مع أسرتها الجديدة، استقبلناها بفرح فاق كلّ الحدود، جاءت تعلن انفصالها عن أسرتنا بجد، وتقرّ أنّه حان موعد مغادرتها عشّنا سعياً وراء الحُبّ.

كنّا سعداء رغم ما عبّر عنه فادي من امتعاض وخوف، فصديقه من طائفةٍ مختلفةٍ، ولا يحقّ لشمس وكميل الزواج إلا بعد إسلام كميل لأنّه مسيحي، أو سيكونان مضطرين للسفر إلى بلد مثل لبنان، أو إلى مكانٍ آخر يقرّ الزواج المدني كقبرص، كيف لبشرٍ أن يمنعوا بحجّة التشريع والقانون الإلهي التقاء حبيبين قررا بكامل وعيهما اختيار بعضهما وفق أسس إنسانية، ويمنعانهما من الزواج عن حبّ، وهما أصلاً لم يختارا دينهما بل فُرض عليهما كموروث.....

استقبلنا أحبّتنا في المطار بعد أن هيأت سعاد البيت الريفي لتقيم فيه عائلة الصديق لأيام نتعارف فيها ونتفق على ترتيب الأمور لأنّ سنوات البعد يمكن أن تُبدّل النفوس.

Scanned with CamScanner

كان اللقاء بين فادي وصديقه يُعبّر عن معاني الوفاء والودّ رغم بعد المسافات وطول الغياب لمدة سنواتٍ، باحتضان وقبلات وتربيت أيدٍ على الأكتاف، وإعادة ذكريات وانتقاد ما طرأ على كلّ منهما من تغيرات بين جدّ وضحكات.

أما كميل فكان في قمّة السعادة والانفتاح، كأنه يعرفنا منذ عهود كما والدته التي عارضت بدايةً فكرة زواج وحيدها من مسلمة وحال لقائها بها بدّلت رأيها عندما علمت أن شمس غير متزمتة دينياً، وتتشابه أفكارها مع أفكار كميل إلى درجة كبيرة تقارب حدَّ التطابق، كما بهرها جمالها فكانت دائماً تُعبر عن ترقبها ابتسامتها ليسعد قلبها برؤية غمازاتها كما حُسن تصرفها..

احتضنتُ شمس كأنّي أتنفسها لم أبكِ إلا بعد رؤية دموعها وما لاحظت من اتزانها وتبدل أحوالها. لم يمض إلا لحظات حتى عادت إلى طبيعتها ومرحها العفوي، كأن حِملاً زال عن كاهلها باحتضاني لها، أجّلنا الأحاديث حتى ننفرد لاحقاً ببعضينا.

المؤثر كان سلامها على والدها الذي حملها وأخذ يدور بها بعيون دامعة فرحاً وتيهاً يضعها على الأرض يبتعد عنها قليلاً ليتأملها، ويسارع إلى حملها من جديد، وهي تتمسك به كطفلة

Scanned with CamScanner

وتخفي وجهها على عنقه ضاحكة حيناً وباكية أحياناً نراقبهما جميعاً بعيون حزينة وابتسامات حائرة، وقد لفتوا نظر العابرين بهرجهما وهما يتصرفان كأنهما لوحدهما وهناك من التقط لهما الصور، حتى تدخل كريم مبعداً والده بطريقة مسرحية: أبي اترك لي جزءاً منها، وسارع لعناقها وراحا يعبران عن شوقهما بهدوء غريب يخفي مشاكسات وأيدي من حنان، تربت حيناً وتنساب أحياناً بلمسات تحنان وضربات.

بات كريم يوازيها الآن طولاً، لاحظتُ تبدلات جسمه التي غادرته الكثير من ملامح الطفولة ليغدو شاباً متين العود يشبه والده إلى حدٍّ كبير، متخذاً المظهر العام لعمه.

لم أستطع تفسير دموعهما أهي شوق أم حزن.. فرح أو استشعار فَقدٍ، ليقاطعهما كميل يَحتضنُ كليهما راسماً صورة لعلاقة تتبلور بجمال وودّ ظاهر فهلل والده قائلاً: صار عندي ثلاثة أبناء، كم أنا سعيد فارتفعت ضحكاتنا جميعاً مغادرين المطار منقسمين، فادي وصديقه وكميل في السيارة الأمامية يقودها فادي، وأنا والإناث بسيارتي التي يقودها كريم، فضحكت شمس معلقة: مرحباً بكم في الشرق لقد انقسمنا تلقائياً... ضحك كريم مشاكساً وهل أنا من الحرملك مقطباً حاجبيه؟

Scanned with CamScanner

قلت بمرح أوجّه كلامي لأم كميل: بدأت المشاكل مرحباً بك في حلبة الجدالات ها قد وصلنا.

استقبلتنا سعاد بالترحيب والتهليل وقد حضّرت الغداء في الحديقة رغم برودة الجو معللة تصرفها بأن فادي طلب منها ذلك ليتدخل ويقول: الشمس دافئة والطبيعة ساحرة والأوجه حسنة غامزاً.

تصرّ سعاد على إطعام شمس عيّنة من كل نوع تضعه على الطاولة ليعلّق كريم: شمس لن تستطيع أن تجلس على الطاولة فقد شبعت من كثرة التذوّق، مضيفاً: سعاد نحن هنا معاتباً.

تناولنا طعامنا في جوّ عائلي لطيف تمحورت أغلب الأحاديث حول الطعام، وتميّز الأطباق السورية التي اشتاقوا إليها وكذلك الأطباق المشهورة في البلدان الأخرى، وأشادوا بخبرة سعاد فقال فادي:

- يعود الفضل للمشرفة الماهرة عليا.

ضحكتُ قائلة:

- عانى فادي من سوء طبخي في بداية زواجنا فأنا لم أدخل مطبخاً إلا للأكل طيلة وجودي في دارة أهلي رغم محاولات والدتي

Scanned with CamScanner

الحثيثة لتعليمي فنون الطبخ وكذلك كان حال التدبير المنزلي، فقد كان الاتكال على أختي الكبرى أو التي تصغرني.

لكن بعد أشهر من زواجي تابعت برامج الطبخ على التلفاز، وبشيء من الاهتمام أتقنت أغلب الأنواع من كل البلدان لكن تأثرت بالشيف رمزي وأكلاته الشامية، وتوّج الفيسبوك معرفتي، فمزجت بين الطرق لأختصّ بنكهة وأسلوب يميّز وجباتي وغمزت: لذلك لم ولن أقلق على شمس أعتقد ستنهج سلوكي لتبتكر أصناف تسمى الشمسيّات، فضحك الجميع.

أردفتُ: سعاد هي قريبة فادي وواحدة من أفراد أسرتي تعمل كمساعدتي ستلازمكم حتى المساء.

تغادر لتعود عند الصباح كالمعتاد إلا إن أردتم بقاءها.

فسارعت السيدة وفاء قائلة:

- لا داعي أن تغيّر عاداتها، سأتدبّر الأمر ريثما تعود غداً.

تعاون الشباب مع سعاد في تنظيف المائدة ورفع بقايا الطعام، وذهب فادي وغسان ليصنعا القهوة وينفردا بأحاديثهم الخاصة.

وبعد أن تناولنا القهوة ودّعناهم مغادرين على أمل اللقاء غداً حال استيقاظنا..

Scanned with CamScanner

ما أن وصلنا البيت حتى أخذت شمس تدور بمرح في أرجاءه تعيد وتكرّر : كم اشتقت لكل شيء هنا .

تفتح الثلاجة لتلتقط بعض الأطعمة وتأكلها واقفة كانت تلك الحركات فيما مضى تستفزّني حدّ الانزعاج فأصرخ ضعي ما تريدين في صحن وكُلي ما تشائين، لكن الآن ضحكت بتواطؤ فقبّلتني وسارعت إلى سريرها وارتمت عليه ونحن نلاحقها .

جلس كريم بجانبها على طرف سريرها وأنا قرب فادي نجلس على سرير كريم قبالتهما نستمع لسرد قصصها وحكايات حدثت معها فسألها فادي كيف تعمقت علاقتك بكميل..؟

قالت مستذكرة بتأثّر : أُصبت بنزلة برد شديدة وعندها شعرت بالغربة فعلاً، فصديقتي لمى غادرت لحضور حفل عيد ميلاد أحد أصدقائنا مع زياد وبعض الرفقة لكن كميل اعتذر ليبقى قربي مطمئناً زياد الذي حاول التقرّب مني والبقاء بجانبي لينزعج من عدم تمسكي به فغادر غاضباً..

رافقني كميل تلك الليلة وعندما اشتدّ مرضي وبدأتُ أهذي أتى بالطبيب وصنع لي الحساء وجلب الدواء وبقي يراقب حرارتي واضعاً كمادات ماء باردة على جبيني حتى استقرّ حالي ونمت لساعات وعند استيقاظي تفاجأت أنه ما زال قربي يجلس على

Scanned with CamScanner

الكرسي جانب سريري يتأمل وجهي بقلق وحبّ، رغم برودة الجو وعناء السهر، وما سببت له من تعب ظهر جلياً فطلبت أن يغادر خفت أن أعديه، ولكنه أبى الذهاب قائلاً: كل شيء منك جميل حتى المرض.

ابتسمت له وأنا أقاوم دموعي فسارع مرتبكاً لمسحها، شعرت أنه يريد ان يضمّني لكن اكتفى بوضع يدي بين راحتيه قائلاً: لا تحزني فأنا معك أرجوك اهدأي وكوني قويّة فدموعك والله توجعني، وحزنك يشتّتني وخرج مرتبكاً ليأتيني بكوب ماء مع حبّة دواء وقال: ها قد حان موعد الدواء هيّا تناوليه، عندها شعرت بالأمان وعلمت رغم صمته ما يكنّ لي من عشق يغلّفه اتّزان، وأدركت سبب انزعاج زياد وإصراره على العودة فقد أدرك أن لا مجال للمقارنة بينهما وقد خسرني إلى الأبد.

بعد أن تعافيت بأيام قليلة صارحني بحبّه، وضرورة زواجنا ليبقى بجانبي قائلاً: تحتاجين لمن يهتمّ بك، أنت معتادة على الدلال وأنا أتقنه جيداً لمن أُحبّ غامزاً.

وقعت كلمة "لمن أحبّ" على مسمعي كالسحر، عَرّت مشاعري تجاهه، وأيقنتُ حينها أنني أبادله الحبّ وأرغب به كما يرغب هو بي.

Scanned with CamScanner

قطّب فادي حاجبيه مستنكراً كلامها : وهل حدث بينكما أيّ شيء؟.

ردّت ضاحكة بسخرية " لا بابا أنا ملتزمة بشرقيّتي، رغم عدم قناعتي بموروثاتنا، متجاهلة استغرابنا الحديث وجرأته تابعت: كم نُعقّد حياتنا هنا في مجتمعاتنا ونمنع السعادة عن أنفسنا، كما عن أحبابنا بحجّة قيم وأخلاق لا تمتّ للإنسانية بشيء، كما أقف أحياناً عند سؤال: من حدّد الأخلاق والمفاهيم والكلمات ليسجنَ الروحَ والجسدَ، ويَحُدّ من الإبداع".

- لا إبداع يا أبي مع الكبت والحرمان.

قاطعها والدها: أتدركين أنّ على كميل أن يصبح مسلماً لتتمكنا من إتمام زواجكما..؟ هل تثقين بمن يَرتدّ عن دينه أن يستمر معك ويخلص لك..؟

ردّت بثقة: نعم بابا.

مَن منّا اختار دينه أو حتى اسمه؟، وكلّ مفروض لا بد أن نُعبّر عن عدم قبوله، ونعلن التمرّد عليه. أما ما نختاره بإرادتنا فنحن نخلص له قدر الإمكان، فهو قرارنا، ونحن نتحمّل مسؤولية نتائجه، وكميل لا يمانع أن يدخل الإسلام لأن الإعلان عن أمر لتحقيق غاية أسمى، وتجاوز ثغرة قانونية يختلف عمّا يكنّه القلب

Scanned with CamScanner

لأن ذاك يندرج تحت عنوان الشكليّات. أصلاً نحن نؤمن بالله الواحد فقط أي "ربوبيين" وتفاصيل الدين كما طقوسه لا تعنينا، فالدين معاملة يا أبي الحبيب.

والعمّ غسان أوضح لنا كل الصعاب التي قد تعترضنا، واتفقنا على إتمام زواجنا في إحدى الدول المتحضرة التي تعتمد المدنيّة وتتمتع بالحريّة كقبرص أو لبنان بحكومته المسيحية.

نهضتْ شمسُ تقابل والدها ممسكة بيده تنظر بعينيه:

بابا لا تقلق فأنا أدرك تماماً ما أريد .. وسأتابع دراستي لأحقّق ذاتي ولا تنسى أحلامي كبيرة وطموحاتي عديدة، ولن يُقصيني عنها أيّ أمر، مهما بلغت أهميته، لكن لن أضيّع فرصة أن يجتمع قلبي وعقلي لاختيار إنسان لمجرد خلافنا الديني فقط، بل يجب أن نشجّع، بعد ما حدث في بلادنا من فرقة، على الانفتاح والدمج بين الأديان والمذاهب والقوميّات، أجل يجب تشجيع الزيجات المختلطة إن وجد الحبّ، منعاً لقتل الأرواح وهي حيّة بحجّة التعاليم والقيود المذهبية والعادات الموروثة فتُمتّن الروابط الأسروية بين الأديان وتُحترم الطقوس عندما تنتشر المحبّة.

تذكّر كم ظُلمت نفوس وماتت قلوب لأسباب واهية ما جلبت إلا الأحقاد والشتات فأنتجت علاقات فاشلة لأن أساسها باطل،

Scanned with CamScanner

فالأمر بسوئه فاق كلّ حدّ، وأعتقد أننا نحتاج إلى عقود قادمة لإعادة بناء جسور الثقة فيما بيننا كشعب تعددي.

ولن يحدث ذلك إلا بثورة فكرية، تبدّل المفاهيم. فالشرف ليس بجسد المرأة فقط كما تعتقدون، بل بالخذلان والتقصير في عملنا بالكذب والخوف كما الخيانة.

أبي ضميرنا هو مساحة الله في قلوبنا، ومشاعرنا هي حقيقة إنسانيتنا.

قال كريم: ما بالك كالبارود تنفجرين؟

- يا عزيزي لو شاهدت شبابنا ونهَمَهَم لأدركتَ معنى الكبت ونتائجه وكيف أنّه بالحريّة تستقيم الروح وتتناغم مع حاجات الجسد.

قبّلها والدها مردداً: وفقك الله لقد أنضجتك الغربة، ولم يضع تعبُنَا عليك.

تَدخلتُ: نعم يجب تغيير مفاهيم كثيرة اعتُمدت في موروثنا لكن الطريق وعرة يا شمس ومن يتّخذ قراراً يجب أن يتحمّل تبعيّاته.

Scanned with CamScanner

قاطعني فادي موجهاً كلامه لشمس: نحن دائماً سنداً لك ولأخيك، ورمَش لي... كفى.

صرخ كريم: من يأخذ من غير ملّته يموت بعلّته وغمز ضاحكاً.

ردّدت شمس: العلّة في المجتمع يا كريم وليس بمن اختار الحبّ..

الحريّة يا أخي أن تفعل ما تريد لا ما يريده الآخرون، حفاظاً على رقيّ الإنسان لأجل مجتمعك. تلك الأمثال رسّخت الرجعيّة كما العديد مثلها "امشي الحيط الحيط وقل يا ربّ السترة" كم يرسّخ من الخوف والجبن.

وافق فادي وأردف: انتصف الليل وما هي إلّا ساعات حتى تشرق الشمس هيّا إلى النوم وغداً نتابع محاضرات شمس.

فضحكنا جميعاً احتضنها قائلاً ما أسعدني برؤيتك وغادر إلى غرفته.

استيقظنا متأخرين على صوت فادي مردّداً مثلاً شعبياً:

كُتب على ورق الخيار من يسهر الليل سينام طوال النهار.

هيا فلينهض الجميع.

Scanned with CamScanner

جهّزوا أنفسكم بسرعة، معكم وقت قصير للانطلاق، حتى الفطور سنتناوله على الطريق، عمّكم غسان داهمته نوبة حنان فذهب إلى كسب ودعاكم لقضاء يومٍ جميل في بيته الوحيد الذي نجا من الدمار عندما دخل المسلحون كسب، وعاثوا في الأرض فساداً، تماما كما فعلوا في قُرانا.. هيّا استعدوا جيّداً المكان بارد وارتفاع الثلج هناك قرابة المتر.

نظرتُ إليه متسائلة هل المكان آمن..؟

أجاب منذ ساعتين وصل غسان وعائلته، فلا تقلقي أبداً.

سألته: ما الذي تغيّر..؟

- من سنين لم يأت إلى سورية بحكم عمله وظروف الحرب، وحال وصوله ومكوثه مع عائلته على انفراد، اجتاحته موجة حنين، ولم تستطع السيدة وفاء ثنيه عن الذهاب - وكالمعتاد - اتصل بأخته التي تسكن في كسب حتى تُعدَّ له منزله، وأخذ كل ما يلزم معه لقضاء إجازة ممتعة، يستعيد فيها ليالي الأنس وأيام الشباب على مقولته، واتّصل بي لنلحقه.

ما هي إلا لحظات حتى كنّا جاهزين للانطلاق، ولم نتوقف طوال الطريق إلا قرب تنّور يصنع الفطائر بأنواعها، تناولنا منها تلك المحشوة بالجبن مع شاي بالزنجبيل، قال عنه فادي موضّحاً إنّه

Scanned with CamScanner

يعطي حرارة للجسم، فالجو بارد جداً، ونبّه عليا وهو يشاكسها إلى أنّ الزنجبيل يرفع الضغط، كما الانفعال، فلا تحزني أو تغضبي، فابتسمت له دون جواب.

كان فادي حذراً رغم ثقته أنّ كلّ شيء على ما يرام وحواجز الجيش تتوزع على طول الطريق، لكني وبحكم العِشرة أدركت ما يكنّ في داخله من توتر وحزن شديدين، يخفيهما بالمزاح والنكتة.. خلال ساعة ونصف تقريباً وصلنا.

استقبلنا غسانُ بفرح كبير، وحال مصافحته لفادي سقطت دمعة من عينيه، وارتسمت على وجهه ملامح متناقضة، تعانقا مطولاً وغسان يردد: ماذا فعلنا بسورية..!!

- لو تعلم يا فادي مدى خوفي عند كل حاجز على الرغم من علمي المسبق أن الطريق كما المدينة أمان، لكن هول الأخبار أرعبني، وانعدام الحركة جعلني حيناً أندم.

آه كم أشتاق لمزرعتي في الغسّانيّة ولحيواناتي وأرضي ونباتاتي.

ربت فادي على كتف صديقه، وهو يشدّ من عزمه ويقول: خسارة المال صغيرة، يا غسان، أمام فقد الولد أو الأحباب، فلا

Scanned with CamScanner

تحزن يا عزيزي، كلّ شيء سيعود كما كان، وتبقى الحسرة بقلب أهل الشهداء كالنار تلتهم أفئدتهم كل يوم.

بكت السيدة وفاء بصمت، واتجهت إلى زوجها تعانقه بحبّ، وتقول: المهم أننا بخير، وعرس كميل قريب فلا تذرف يا حبيبي إلا دموع الفرح، اعتذر غسان من الجميع محرجاً ينظر إلى البعيد ليصرخ فجأة بفرح طفل صغير: انظروا سنجاب.. على شجرة البلوط مشيراً بيده.

فنظرنا جميعاً حيث أشار، رأينا سنجاباً بنيّ اللون يُراقبنا، وما إن علت ضحكاتنا حتى أسرع بالهروب.

ما جعل أجواء الحزن تتلاشى عن الوجوه، لكنّ القلوب مغلقة على حسرات وآهات دفينة، كما كلّ مواطن سوري مغلوب على أمره، يبكي أوجاعه بصمت.

عرّف غسان أخته مادلين وأسرتها على شمس قائلاً: هذه عروستنا الجميلة شمسُ كميل الساطعة، ملتفتاً إلى فادي ومتابعاً بخفة دم مع إحراج: حَضّرت طقساً احتفالياً في كنيسة السيدة على نطاق ضيّق كمفاجأة وأتمنى ألا أسبّب إزعاجاً بذلك أو إحراجاً، قال ذلك منتظراً ردّ فعل فادي الذي جال بنظره بيني وبين شمس فتدخلت السيدة وفاء:

Scanned with CamScanner

جهّزنا كل شيء واخترت ثوباً أبيضاً يليق بالعروس، أرجو أن ينال إعجابها، أمسكت يد شمس ونظرت إليّ تشير أن ألحقهما.

كان ثوباً أنيقاً بطريقة عصريّة من الدانتيل الأبيض، يشابه أزياء شانيل مع كامل ملحقاته، لتبدو شمس كأميرة فينيقيّة بزينتها البسيطة.

أردفت وفاء: إصرار غسان جعلني أتجاوزك أيتها الابنة الغالية، وعلاقته بوالدك أعطته حقّ أنه بمقام فادي، فكسر كل العادات، وترفّع عن الشكليات، ليستعجل بارتباطكما متمسكاً بالأفراح.

قلت بخجل: المهم الاحترام، لا قيمة للشكليات، وعلى العموم لقد بات المجتمع كلّه يكسر العادات، لكنكم حطّمتم الرقم القياسي، فضحكنا جميعاً.

مضى كل شيء بهدوء وترتيب مبالغ فيه، رغم شدة البساطة قضينا يوماً مثيراً، إذ حاول الجميع إسعادنا كأنهم يُعاندون بفيض اهتمامهم بنا وكسر التقاليد كل ما تروّج له الحرب من فرقة وأحقاد بين الأديان المختلفة.

تمّ إكليل العروسين وأعلنا زوجاً وزوجة موضحاً غسان أنه سيقيم لهما احتفالاً كبيراً بحضور الشيخ في أهم فندق بالمدينة فاعترض فادي:

Scanned with CamScanner

- لا داعي لاحتفال آخر بوجود شيخ فقد انتهى الأمر. الله واحد يا صديقي، وها هو الخوري أعلنهما الآن أمامنا وأمام الله حبيبين إلى الأبد، يتحملان مسؤولية اختيارهما معاً، ونساندهما قدر المستطاع ما زلنا أحياء.

فسارع غسان يحتضنه ويؤكد قائلاً: لن يكونا إلا سعداء هذا وعد ما حييت.

بعد انقضاء مراسم الاحتفال وقبل مغادرتنا بقليل أثناء تناولنا القهوة قال فادي:

سيسافر أحدنا معهما إلى قبرص لإتمام معاملة الزواج الرسمية ويقضيان أسبوع عسل.. أتريد أن تجدد مع وفاء أيام عشقكما..؟

ضحك غسان وقال: فليذهبا بمفردهما ويبدأا بتحمل مسؤولية نفسيهما، أعتقد أنهما لن يعودا يوماً إلى سورية فكلاهما يحملان فكراً لا ينتمي لهذا المجتمع المنغلق، وأنا أؤيدهما، يجب أن نرمي أحمال الماضي لنعيش حاضراً سعيداً، ونهيئ لبناء مستقبل جديد فهمُ الأمل الواعد.

قاطعته وفاء: لعلّ فادي يريد الذهاب مع عليا ليعيدا ذكريات عسلهما ويطمئنا على شمس..!

شرد فادي وصَمتُ أنا باسمة.

Scanned with CamScanner

عبس غسان متسائلاً : هل هَمّ البنات ما يشغلك يا عزيزتي أم أنّ هناك أمراً آخر يُقلقك.

أشعر بما يعتمل بداخلك من فوضى منذ بداية وصولنا.

إن كنت قلقاً على شمس فهي ابنتي أتعهد بذلك ولن تضام بوجودي وأكدت ذلك السيدة وفاء.

ظهر الإحراج على فادي مستنكراً : شمس تنير بذاتها لم أقلق عليها يوماً فقد أثبتت خلال مرض والدتها جلداً جباراً واتزاناً يؤهلها لخوض غمار الحياة، لكن يحزّ بنفسي غربة أبنائنا في أوطانهم وخارجها، وأحمّل جيلنا المسؤولية.. لم نأخذ دور المثقف الحقيقي بتغيير مفاهيم الحياة وفق تطورها، بل رسّخنا فكر الأجداد بكل رجعيتهم، ما سهّل الغزو الفكري لأجيالنا وَمن خلفنا.

أجاب غسان : لا تجلد نفسك، فالشعوب في بلداننا لا تبدّل حالاً مهما امتلكت من فكر، الحكومات هي من تفعل ذلك وفق أجندات داخلية تحاكي الأجيال وتتاليها ومرتبطة بالخارج وطموحاته.

مردفاً : بلداننا يا صديقي محكومة باستعمار وخطط ممنهجة، فلا نملك لتغيير العقل الجمعي إلا بالانطلاق من ذاتنا، وهذا ما فعلناه كلانا، نعم رأيت بشمس الجيل الواعد المحبّ للعمل المُجد، وهي

Scanned with CamScanner

تشابه كميل الذي عاش في أوروبا، وهو لا يأتي إلى سورية إلا إجازات قصيرة، لكن وفاء عمدت إلى تربيته بحسّ إنساني عالٍ، كما فعلتم مع شمس، رغم تفاوت المجتمع وعاداته، فكانا لَبِنَة أساسية لمجتمع ناضج، لا ينقصهم إلا القرار البرلماني..

تدخلت: الأولاد في الشرق نتاج النساء، من جعل المرأة واثقة حصد النجاح وربح السعادة رغم ضغوط المجتمع وانتقاداته.. أستغربُ كيف لأمّة أن ترتقي بنصف مجتمع مقموعٍ محجبِ الفكر كما الجسد، رغم ادعاء التحرّر في سورية فقد أثبت أن المظهر غربي والجوهر أفغاني..

من أين خرجت كل تلك الأفكار المسمومة التي قَسمت المجتمع ومتى تلونتْ تلك الوجوه، وأي جحور وجحود كرست وأعدّت..!

ردّت وفاء: على الرجل أن يحرّر ذاته حتى يتمكن من منح المرأة حريتها، يا صديقتي ما حدث نتاج تراكم كبت وجهل.. عموماً هذا واقعنا.

- على المرأة أن تعي مقدراتها وقيمة نفسها لتربّي أبناءها على الرجولة والفكر المنفتح ليتعاملوا مع المرأة برقيّ.. ردّ فادي غامزاً.

Scanned with CamScanner

أكدّ غسان: نعم المرأة عماد أسرتها متى أدركت التحديات التي تواجهها وتصدّت لها أنشأت جيلاً منفتحاً واعداً.

وأكدت عليا: في سورية نماذج عدة تختلف بحسب المدن والبيئة فالساحل عموماً منفتح، أما الداخل منغلق رغم امتلاكه درجات تعليم وافرة كحمص، ليزيد الانغلاق في بعض الأحياء الدمشقية كما المناطق الشرقيّة التي تعتمد قوانين العشائر والقبائل، فينقسم المجتمع إلى متعصبين، وقلة من المنفلتين، يعيشون غراميات وفق العادات الغربية، راكضين خلف غرائزهم بالعشق يدّعون تحرّر الفكر لممارسة ما لا يقبله أي منهم لأخته، وعند الزواج يختار كما والده وجدّه وفق صورة أو ما اختارت والدته.

تدخل كميل: أي انسجام قد يكون بينه وبين إنسانة اختارها له أهله من خلال صورة! متابعاً حتى أديياننا نتوارثها كأسمائنا ولا يجوز الاعتراض أو التفكير بكيفية انتقالها وحقيقة مشاعرنا تجاهها.

أجابته شمس: العائق بالقداسة، استرسلت تشرح..

تقديس الأشخاص يولّد التعصب والإرهاب كما يخلق قيماً تصنع حواجزاً، لا مفرّ للتحرّر إلا بكسر ثالوث الجنس والدين والسياسة وفق منظومة مفاهيم جديدة.

وافقها غسان بإيماءة من رأسه مردفاً:

Scanned with CamScanner

نعم يا بنيتي عندما يتحوّل الإيمان إلى عقيدة، يُؤلّه الناس أشخاصاً حدّ الموت فيخلق التعصّب، في سبيل الذود عنهم ويُصبح للعقل حدود، فالإيمان بحدّ السيف يدل على الحجّة الضعيفة.

تقصدان فتح مجالات الحوار بثالوث الرعب الشرقي قال فادي ساخراً موجهاً كلامه لشمس: أتدركين قلّة في مجتمعاتنا يفهمون المعنى الحقيقي للعلمانيّة، الأغلبيّة مُدّعون للثقافة ويعدّون مهاجمة الدين أساس تميزهم والإلحاد والتحرر عندهم نظري لا يمارسونه في بيوتهم وفق مفهوم مشوّه فالعلمانيّة هي احترام الدين وفصله عن الدولة وإدارة كل فرد واقعه بذاته وعلى نظام محدّد والإلحاد هو البحث عن التفسير العلمي لكل ظاهرة طبيعية..

تابعت شمس: تلك مفاهيم متوارثة والخوف يحجب الحقائق.. نهضت أوروبا بعد سيل من الدماء وقتلت الكنيسة الكثير بحجّة الهرطقة، واستخدمت الحرق، والقتل بأبشع الطرق، لكن ثورة الفكر يا أبي هي التي بدلت الحال لا ثورة الجوع كما ربيع الشرق المتشبّع برائحة الدّين والتعصّب وأهدافه خدمة أجندات الآخرين وتفتيت المفتّت، وأمّا تلك الحكومات العميلة التي انتهت صلاحيتها ووظيفتها واحترقت أوراقها تم الانقلاب عليها فسقطت واستُبدل حكّامها.

Scanned with CamScanner

- قال كميل حزيناً : كلّ أصحاب الفكر والكفاءات في بلدنا اضطرّوا للهجرة بسبب إهمال الحكومات وتهميشها لهم وقد برعوا في الخارج «كعمر الحموي» الذي غيّر مجرى التكنولوجية في العالم.

والدكتور «حيّان عليا» الفائز الأول بمسابقة أبحاث الدكتوراه في مجال التمويل الصغير على مستوى العالم.

و"علاء الدين سبيعي" الذي اخترع مادة كيميائية يمكنها إزالة الشوائب العضوية كالمواد الدوائية والمبيدات الحشرية من المياه بسرعة تتجاوز مئات الأضعاف جميع المواد فتعالج المياه بأرخص التكاليف ونحن الآن نعاني نقصاً بمورد الماء، وقد نشرت عنه مجلة نيتشر العلمية وهو يعمل حالياً كباحث في قسم الكيمياء بجامعة كورنيل الأمريكية، وأمثالهم كثر، ولم يقتصر الأمر على الذكور فقط إذ نالت الدكتورة السورية هلا أصلان المرتبة الأولى في مسابقة الشباب الأكثر تميزاً بالعالم لعام ٢٠١٩ عن فئة البحث العلمي والإنجاز الأكاديمي.

تلاقت نظرتا غسان وفادي بعيون دامعة وأسى ارتسم على الوجه فتنهد فادي كمن ينفث ناراً وقال بحزن :

Scanned with CamScanner

أغلب كفاءاتنا اغتيلت أو هاجرت، ومن تبقى من الشباب الأخيار استشهدوا أو هربوا خوفاً من الخدمة الإلزامية، أو بحثاً عن مستقبل واعد، وقلة قليلة بقيت تصارع الحياة بما تفرضهُ الحكومة والواقع المرير، فالأحوال الاقتصادية في تدهور والحرمان العاطفي بات أمراً طافياً يتجلى بانحلال أخلاقي.

أردف غسان: بعض الشباب وجدوا حلّاً للعنوسة بالمساكنة ما جعل الانفلات غاية والروح مشتتة بين حاجات الجسد وسمّوها.

ليردّ كميل: ما العيب بالمساكنة إن كانت ضمن حدود الإنسانية وقداسة الارتباط..!

متى سيخرج المجتمع من عبوديّة العادات فيبّدل المفاهيم..؟ الجسد يا أبي ملك صاحبه وليس عنواناً لشرف الآباء والأجداد .....

قاطعتهم وفاء: آن أن ننتهي من الأحاديث السياسية التي توجع القلب، ألا تملّون من نزف الأوجاع واجترار الأوضاع!!

ستموتون كمداً إن بقيتم على تلك الحالة.

ارحموا أنفسكم. ونهضت تجمع الفناجين الفارغة.

Scanned with CamScanner

أردفت عليا: بتنا شعباً هارباً من واقعه المرّ، يمتهن النكد، والسياسة خبزنا المعجون بالأسى، وحتى عالمنا الافتراضي حولناه لواقع محدود.

وجهت وفاء كلامها لشمس وكميل ماذا تفعلان هنا عيشا الحياة بفرح اذهبا وتنزها بينما نجهّز أمورنا للعودة، ممسكة يد كل منهما لتشابكهما هيّا.. هيّا ابتعدا عن كل ما يزعج! أنتما عروسان.

غادرا ممسكين بأيدي بعضهما يبتسمان بحياء..

باتت السياسة والدّين خبزنا!!

أين الفرح؟

سأعزف لكم أغنية تناسب غسان وهو يحبّها كثيراً واتجهت إلى البيانو العتيق.

فصرخ فادي: ليلة مبارح مكنيش نوم لسيّد مكاوي، غامزاً بمرح، ففضحك الجميع.

في طريق العودة توقفنا عدة مرات لالتقاط الصور، فقد صعد معنا كميل تاركاً والديه يتبعاننا بهدوء، حتى يصلا المطار، متجهين إلى دمشق ليقضي غسان بعض الأعمال المترتبة عليه واللقاءات بعد

Scanned with CamScanner

ما اتفق مع فادي ليتكفل بإعداد أوراق سفر العروسين إلى قبرص، وحال عودتهما سيرجع الجميع كما أتوا إلى روسيا كأسرة مع فرد جديد..

قرر فادي استضافة كميل لحين موعد السفر، متأملاً أن يشبع من دفء شمسه ويرشد كميل بطرق غير مباشرة على كيفية التعامل معها متجاهلاً ما بينهما من حبّ، وما قد تتقبله منه من الجائز أن ترفضه من الحبيب، والعكس، مستغلاً كل موقف ليوصيه بها شارحاً طباعها.

أتبادل أنا وكريم النظرات والابتسامات المتواطئة. وكميل يتقبل كل نصائحه مطمئناً إياه أن شمساً أهم ما في حياته بكلمات صريحة.

ضحك كريم مازحاً: أبي اشكر الله أنه أراحنا من هم.

فعبس فادي: لم أفكر يوماً أنها ستغادرنا بهذه السرعة ولولا أني أشعر بسعادتها لتمنيت أن ينفصلان الآن لتبقى معنا طوال العمر.

فقلت مواسية: هذي سُنّة الحياة يا فادي.

قامت شمس لتحتضنه ممازحة: أبي لا يمكن أن يُصنع مني مخلل، كما أنني قريبة بأي وقت تشاء فقط كلمة ألو وتراني بعد ساعات على جناح السرعة أمامك.

Scanned with CamScanner

أياماً مضت مسرعة، ليعود الروتين يخيّم على حياتنا وما خلّفه غياب شمس وكميل من فراغ زاد صمتنا، إلا لحظات الذكريات فتؤثر فينا ونَجتَرّ مواقف أضحكتنا وأخرى أوجعتنا.

وفي إحدى الأمسيات انتابتني حالة كرب وضيق، رغم فسحة الحياة، فضجّت روحي واجتاحتني موجة بكاء، وكان فادي يرقبني بازدراء لأول مرة..

ما هي إلا ساعات حتى اتصلت أختي تطلب ثوباً من ثيابي يناسب الحفلات من باب الفضول والثرثرات سألتها عن المناسبة التي تحتاجه لأجلها لتجيب باقتضاب ألم يخبرك فادي؟!

تبادلت مع فادي النظرات، وهي تتابع: غداً عرس نزار، باغتني الجواب بعفويّة واستغراب، برّرت عدم معرفتي بانشغالي بشمس، وسارعت مباركة من قلبٍ وجلٍ ببعض غرابة وغصّة أقرب إلى غيرة، فتساءلت ضمناً: أهو طبع الأنثى أم نرجسيّة الإنسان وانزعاجه عندما تنتهك ممتلكاته..

تابعت حديثها لكني لم أسمع كل تفاصيله، وأنا شاردة أسترجع حديثي معه على الشاطئ، أحثّه على الزواج ليُسعد والدته منطلقة من إنسانيتي وقليلاً أغيظه.

Scanned with CamScanner

علا صوتها، ليعيدني إلى متابعة ما تقول صارختُه مرّات عدّة بحبّها أثناء زياراته المتكررة لوالدها وهو يرفض بحجّة فارق العمر بينهما محاولاً الابتعاد قدر المستطاع، حيث انقطع عن زيارتهم لتبادر هي إلى زيارة والدته والاهتمام بها فأدركت أم نزار الأمر وتساعدت مع أخواته لإقناعه، وتمّ الارتباط كررت التبريكات والدعاء لهما بالرفاه والبنين، وفادي يرقبني بفضول وتوجس، وبعد انتهاء المكالمة بوقت قصير تخلله صمت ثقيل قال: اعتقدت أنك ستنزعجين، أم أنك بُتِّ تتقنين إخفاء مشاعرك عني..!

صدمني تعقيبه فضحكت باستغراب أدّعي الهدوء وأحاول الهجوم عليه:

- أتراني أنانية وأريد امتلاك الكون بكل ما أحببته يوماً.

يا صديقي سُعدت جداً لأجل أمّه وأعلمُ أنّه لن يستطيع إسعاد امرأة طيلة حياته، لكنه شهم سيبذل كل طاقته، ولن يوفر أي جهد لذلك..

صَمتُّ لحظة وتابعت:

أيها المحبوب لئيم من يعش حياته ويحزن عندما يرى الآخرين ممن أحبّ يفعلون.

Scanned with CamScanner

لنا حياتنا التي نسعى لتزدهر بالفرح.. أنسيت سبقناه أشواطاً لقد زوّجنا ابنتنا من أيام.

مشاكسة همستُ: انسَ الماضي فقد بات ذكريات هامشيّة إلا عند الزعل.

ابتسم بتكلّف: حسناً..

لم أملك يوماً ثقافة النكد أو الزعل أم لديك رأي آخر..!

اقترب ليمسك يدي قائلاً: تصخب الروح عندما تناجي أرواحاً نَسجنُها فتسجنُنا، مُبتلعاً غصّة مجروحاً قَبّل يدي وابتعد دون أن ينظر خلفه أو ينتظر ردّي متجهاً إلى ملاذه بين النباتات، أوجعتني عبارته ونقاء حبّه..

راقبته أفكر بأوجاعه وما تحمّل من تقلبات مشاعري بصبر محبّ ناضج قلّ نظيره.

هذه ديّة الحبّ، من يُحبّ أكثر يتحمل العذاب بجرعة أكبر.

لم أنتظر طويلاً لحقته بكوبين من الكمّون مع الليمون إلى الحقل، عندما لمحني أسرع لملاقاتي بعد أن تناول كنزته عن غصن شجرة وفرشها على الأرض لأجلس عليها، وأتى بحجر مسطح جعله طاولة وتقدم نحوي يتناول الصينية من يدي.

Scanned with CamScanner

ملأ كوبه وارتشف منه قبل أن يملأ كوبي لعلمه أنّي أحبّها مخمّرة غامزاً: أهلاً بك في حلبتي.

أربكني إدراكه أن قدومي ما هو إلا لمتابعة الحديث ومن عينيه أدركت أنه فرّغ بالعمل ما كان يوجعه.

قدّم لي مشروبي وهو يقول: أيتها العابثة ما زالت ثقوبك تنزف وشعورك يزهر كل موسم.

صمت برهة مبعداً نظره عني، كانت يداه تعتصران الكوب كمن يريد كسره، تابع: أعلم نقاء قلبك وشفافية روحك، لكن خوفي عليك يوجعني وأُدرك أن تلك المشاعر ربانيّة، فلا ألومك لكن استوقفتني عبارتك أنه لن يُسعد امرأة يوماً..

لأيقن أن السعادة قرار يا غاليتي مهما كثرت المنغصات، ولا يتقنها إلا أبناء القمر، إذ يحولون كل كرب إلى حبّ وكل فشل إلى إبداع، نعم سعادتنا قرارك، ونجاح أسرتنا تدبيرك.

قاطعته: يد واحدة لا تصفق يا فادي كلانا كالتراب والماء امتزجنا لنشكل حياة وكانت السعادة قرارنا معاً.

هل تدرك أنك تتقن إسعاد الآخرين ببذخ عطائك وحكمتك وجميل صبرك يا حبيبي الصدوق!

Scanned with CamScanner

بعكس نزار الماجن الذي تبتلعه الحياة..

ابتعدَ يستمع إليّ باتجاه الشجرة كان قد جمع باقةً من ورود السوسن قدّمها لي وهو يساعدني على النهوض قائلاً: الزعل يضرّ نرجستي، ويقتل أحلامها.

قبل أن ألتقط كنزته أمسكها قبلي ليتقابل وجهينا منخفضين سرق قبلةً بمرَح صبي ما أربكني فهويت ليحتضنني مستنشقاً رائحتي يقول:

- كم أُحبّ عبق الفانيل ممزوجاً برائحة جسدك الفتّان..

ارتجف بدني، قاومت أنفاسه بدلال مصحوب بالخجل، حتى تحررت منه.. رحت أركض مبتعدة باتجاه المنزل ناسيةً الأواني..

صرخ: أعشق أنوثتك.

استدرت أقول: تجذبني رجولتك.

نظرت إليه وأنا أمشي للخلف لمحت القلق في حركاته فقال بلهفة: انظري أمامك سأنجز ما بيدي وألحقك.

استدرت أبتسم برضى، وأنا أتابع طريقي وفي رأسي تتوالد أشعة نور وقلبي يملؤه السرور، فتلاشى ضجيج روحي، لأقول بصوت مسموع:

Scanned with CamScanner

سأطلق سراح نزار وأفتح له باب قلبي ليغادر لعلّ طيفه يفارقني وأدعو له بالسعادة فيحررني، انتشيت لأشعر بخفّة وكأن أجنحة قد نبتت لي كفراشة رشيقة زاهية الألوان، فسارعت خطواتي ترافقني نظرات فادي سابَقْتُها جرياً وابتساماتي ترتسم وتعلو همهماتي.

ما هي إلا أسابيع حتى صدرت نتائج اختبارات كريم وقد حقق نتيجة رائعة قياساً بدراسته، فكان معدّله عالياً يسمح له بتسجيل أيّ فرع يختاره، لكنه فضّل هندسة العمارة التي يحبّ، وتخدم هوايته بالرسم.

اتّصل كميل وشمس يباركان له، ويلحّان عليه أن يسافر إليهما ليدرس في روسيا، لكنه أجابهما بالرفض ممازحاً: حلمي أن أدرس بجامعة تشرين لكثرة ما يُحكى عن فتياتها الجميلات، قالها ضاحكاً يستفزّ شمس، فلا تحاولا، وعند خروجي سمعته دون قصد يوضح لكميل أنه لا يريد أن يتركني ووالده لوحدنا في هذه الظروف، قائلاً: كلاهما يحتاج أحدنا، وأنتَ سرقت شمس، ولم يبقَ إلا أنا في الميدان.

حزنت عليه، وعلى سمو حسّه، رغم أن قراره أفرحني تجاهلت طموحه بأنانيّة، ليبقى قربي بعدم قناعة، وأنا أبرّر موقفي: "عندما ينهي جامعته يستطيع السفر لتحقيق غايته".

Scanned with CamScanner

تغيّر نمط حياته، بدأ يساعد والده بالحقل، ويعزف على الغيتار، والمطالعة بدأت تأخذ حيّزاً كبيراً من وقته، كما أنه استعدّ لجامعته، وأنا أرقب تغيراته بامتنان..

ملأ حياتي حبّاً وحناناً وهو يعاملني كطفلة، يساعد سعاد بتواضع رجل ناضج، ويستفسر منها عن طُرق الطبخ، يشرح لها بعض الوجبات من النت، يتساعدان بإعدادها، وتبدلت ملامحه قد زَيّنت وجهه الأبيض شوارب سوداء ليظهر نقاء عينيه تحت شعر سابل طويل، ونما جسمه حتى عادَلَ طول والده أو زاد عليه قليلاً، يتمتّع بخصرٍ رفيع وعضلات منسابة ترتسم بشكل جميل، منكبان عريضان يعتزّ بمشيته مدركاً تناسق جسمه وجاذبية حركاته المتراقصة بثقة.

ما دعا سعاد لتُعلّق ضاحكة: أقسم أن كريم عاشقاً.

ارتبكت عندما باغتها فادي من خلفها بسؤاله:

وما دليلك على عشقه..؟

- هو مزهر، كما قالت السيدة عليا، فلا يزهر المرء إلا بالحبّ.

فقال فادي لها بجديّة: اصنعي القهوة وسنفكّر بالأمر، وراح يراقبها وهي تخرج محرجة واتجه صوبي: حبيبتي تعطي دروساً

Scanned with CamScanner

بزهرة الوجد ، وتبخل على من يُحبّها وتُحبّ، متأملاً وجهي بنظرات عشق وسألني :

- هل تريني مزهراً بحبّك!

ابتسمت وقلت له :

- أنت مزهرٌ بكل أنواع الوجد ، تَبثّ طاقة حبّ أينما حللت.. والولد سرُّ أبيه.. وهو يشابهك بكل شيء ، حتى إحساسه بالمسؤولية، هو نَسغك وما ينبض بجسده من دمك، يحمل طيب خلقك، ونقاء روحك، ويتمتع بقدرة هائلة على العطاء مثلك.

جذبها وأخذ يقبّل خدّها وهو يرنو للبعيد متمتماً :

- كبر الأولاد يا عليا .

وراح يهدهدها كمن يستشعر الفقد من جديد ، ويحتضن مريضاً على شفير الفراق، تكوّرت عليا بحضنه كمن يلوذ بالأمان متسائلة :

- ما الذي يقلقك أيها المحبوب؟

شمس انطلقت تحقق ذاتها مع من تحترم وتحبّ، وكريم بات رجلاً يُعبّر عن قلقه فلا تُزِدْ من خوفه علينا ، دعه يتحرّر من أعبائنا

Scanned with CamScanner

فنتحرّر ونحرّره من أحمال الشرق، وننعم بما تبقى لنا من عمرٍ، وكُلّ منّا يسعد بأسلوبه.

- ألا ترين يا غاليتي التطورات العالميّة وانعكاساتها، كأنّ حرب عشر سنوات لم تكفِ لانهيارنا حتى يأتي ذاك الوباء فيقضي على ما تبقى من أمل لدينا.

- نحتاج مزيداً من الوقت لندرك حقيقة ما يحدث أهو تغيير ممنهج لنظامٍ عالميّ، أم هو فعلاً أمرٌ خرج عن سيطرة الإنسان وعن سلطة أسياد الكون..؟؟

- كل شعوب العالم تخضع إذ تتلقى نفس التعليمات، ولا سبيل إلا للتنفيذ رغم كثرة التساؤلات.

فكّر بعد قوله متسائلاً أي شياطين تسكن أولئك البشر؟ وإلى أين يريدون أخذ سكان الأرض؟ أشعر أن الأمر مرعباً يا عليا!

- لا تشغل بالك بأمور تفوق طاقة تحملك حتى لا تُعذّب روحك أيها المحبوب.. كلما كبر حلم الإنسان وزادت معرفته بأسرار الكون بات يُبرّر شروره بأسلوب مُتقن حدّ الشيطنة.

ألا تعلم أنّ لكلّ منّا ملاكاً يمثّل الخير، وشيطاناً يتجلّى بالشرور، فمن رَوّض شيطانه طفا الخير في نفسه، ومن شغف ليصبح إلهاً يريد أن يُنظّم الكون وفق رؤيته، بات خطراً على

Scanned with CamScanner

الأرض وسكانها بسعيه الدؤوب لفرض قناعاته على حساب دمار الأرض أو موت عدد من البشر.

وأضافت: بعض العلماء يرحبون بموت المسنّين والمرضى، لإنقاص الكثافة السكانيّة.

- وُجدت الأديان، يا عليا، لراحة النفس البشرية عند العجز، فجميعنا نحتاج دعماً روحياً وقت الضعف.

رمشت بحزن لا يخلو من الحقد وقالت:

- أغناني دعمكم وقت يأسي عند استئصال جزء مني فكنتم ربّي حين فقدت الثقة بالرب.

نظر فادي بدهشة مَنْ صدمته شاحنة: يا حبيبتي إن إيماني بالله هو الذي مَدّني بالقوة والطمأنينة لأكون لك المدد والسند، وقبل أن تجيب عليا قام باحتضانها منعاً لمتابعة الحديث كفاعل خير تَطوّع بلحظة وقوع جريمةٍ فأفسد الأمر على المجرم، قبّلها بتوسلٍ عابد، أرجوك يا عليا فكري أن الله يُحبّك إذ رحمك ورحمنا ببقائك حيّة تُشاركيننا أفراحنا كما أحزاننا.

وأضاف فادي قائلاً:

Scanned with CamScanner

- تذكري غربة شمس وحملها الأوّل، كوني يا حبيبة كما عهدتك طاقة حبّ، عرش الله قلبك، انثري، كما العادة، عبق الفرح، وشدّي خيط الأمل، ولا تجعلي محنةً تُفقدك الإيمان فتتمرد روحك.

- أنتَ ملاكي ومرشدي، ولن أتوه ما دمتَ قربي، لكنّي أشكّ بنوايا الخالق وقت اندلاع الحروب وانتشار الظلم..

- أنتِ حفيدة ليليت المتمردة، التي أبت أن تكون تابعة لكائن بالحقيقة هو يتممها ..

وأضاف: أحبُّ طباعك لكن أحياناً أخاف عليك من تقلبات مزاجك، فمن تُقرُّ بجانبها الشيطاني فقد نضجت حدّ العقدنة فلا تُرهبها الهاوية، وروحها نَمت لدرجة ما عاد الغروب يخيفها.

- لا تخف يا فادي مَن كانت للأحلام ولادة يبقى خيط الأمل مشدوداً لشراييننا، ونبات الوجد في عمقها يبقى أخضراً.

وأضافت: أيها المحبوب في حياتي رجل آخر أسعى بصبر لتحقيق أمانيه، وأحرص على السهر لإسعاده. هو وعدٌ قطعته على نفسي.

انتفض جسده كمن لُدغ، مستفسراً بنظرات مرتقبة.

Scanned with CamScanner

أردفت بابتسامة لا تخلو من السخرية:

- كريم هو توأم روحي الذي أضحّي بما تبقى من عمري ليكون مرتاحاً، اضطربت أحاسيسه محاولاً تغيير سحنته بالمزاح:

- اعتقدت أني توأم روحك..!

- لا يا محبوبي أنت شُعلة روحي، تستنبط من داخلي كلّ أنواع الوجد، وإن بَعُدتَ تنطفئ جذوة عشقي فتبهَت ألوان الحياة في نظري، وأفقدُ محوري.

صَمَتُّ أستجمع أفكاري، لماذا دائماً فادي يخشى من منافس مجهول؟ ما يضطرني لتأكيد حاجتي له، ويَشعر أن جذوره لم تنغرز في أعماقي؟

هل يعتقد فعلاً بما ردّده يوماً أمامي أنَّ مَنْ لم تتزوج حبيبها تبقى عذراء مدى الحياة حتى لو أنجبت مئات الأولاد!

رغم زواج نزار، بعد عودته وإجراء عدد من العمليات ليده التي أصيبت إذ بداية تم معالجتها بشكل غلط، وعدم ذهابي لرؤيته وبُعد المسافات بيننا ما زال يَرقب ملامحي عند ذكر اسمه كمن يريد ثقب روحي من عيني ليتبين أعماقي، بحثاً عن بقاياه التي أزالت أغلب آثارها السنون وحين تحدثت عنه حررته وتحررت أنا منه.

Scanned with CamScanner

جاءني يوماً حزيناً يُخبرني أن الحمل الثاني لزوجة صديقه فشل فخسروا الجنين بداية الشهر الثالث متسائلاً: هل وجود الأولاد يمحي ذكرى الحبيب الأول؟

أجبت بعفويتي المعهودة: لكلّ إنسان يمرّ في حياتنا ركنٌ يعبق بتفاصيل أثّرت فيه، قد لا يذكرها الآخر لكنها تحمل بعض أحاسيس تختلف بمرور الأيام، فلا أعتقد أنه يمكن لشخص ما أن يأخذ مكانة آخر، بل يساعد مروره بنمو الروح، فتنضج الأحاسيس، ويَغدو للذكرى صوت..

النفس كما الجداريات تختلف معانيها حسب اللحظة، وتتبدل الرؤية لها بمرور السنين، فنرى تفاصيل لم نلاحظها سابقاً.

عندما أنهيت ردّي انتابني شعور بالندم حين ارتسمت على ملامح فادي خيبة لم أدرك مبررها، فبات كمن استطعم علقماً، حاولت تدارك الأمر بقولي: هل وجود كريم أو شمس يقللان من أهمية حضورك!

لمعت عيناه بما يشبه وميض غيمة ماطرة بابتسامة زاخرة وأجاب بهدوء: معرفة من نحبّ وسَبر أغواره يُعتبر سلاحاً ذا حدّين، فهو مرهق للطرفين بقدر ما هو مريح جداً، يغدو الكذب محالاً والمجاملة باهتةً والصدق - فقط - هو درب الوصال،

Scanned with CamScanner

فالأرواح العارية تقوى بترميم ضعفها دون طلب، كما أنها تكشف مواطن إيلامها أمام المحبّ، وأنا أحبّ فيك كل الخصال وتلك البساطة بالانتقال من طبيعتك الطفولية إلى دور المتزنة الذكيّة تبدين طفلة شقيّة.

ضحكت بخجل مشاكسة واحتفظت بالرد ..

غمز بعينيه وقال: لقد أصبتِ يا زهرتي صميم القلب.

- حكيم من يمكنه سماع الصمت، فكل تفاصيل حياتنا يرددها صوت الصمت الذي يبوح بماضينا والحاضر، لتُصبح للزمن ذاكرةً، لكننا - يا فادي- لا نستمع حتى لثرثرة بعضنا بعضاً، فنتوه في غياهب أنفسنا ونحجب مرامنا بتهورنا.

مَن يسمع صوت الحاضر يتّخذ قراراته بحكمة يسكنه الرضا رغم اضطراره للحذر الدائم.

مضت أشهر على تطبيق الحجر الصحّي بسبب (كوفيد ١٩) وكثر الحديث عن وباء كورونا، وازداد العبء النفسي والاقتصادي على البشر بالتزام المنازل والإجراءات الجديّة بالحظر ومنع الاختلاط بين الدول، حتى المحافظات والمدن، ليطول عزلها عن الريف، وتمّ إغلاق جميع المحال التجارية باستثناء مراكز المواد الغذائيّة والعلاجيّة، مع التقيّد بكافة السبل الوقائية بإشراف الصحّة العامّة

Scanned with CamScanner

فتعطلت الحياة. آلمني أن تلد شمس ابنها الأول (رايان) بعيدة عنّي رغم معرفتي أن اهتمام الغرب ورعايتهم للأم ولطفلها يفوق أضعاف المرّات الرعاية الموجودة في مشافينا فكانت ردّة فعل فادي أبسط مما توقعت محاولاً التخفيف من وطأة كربتي بإجراء المكالمات المصورة بشكل يومي وتكرار مناقبية صديقه وأسرته ومدى تعلقهم بشمس.

كانت ولادتها طبيعية عانت قليلاً متحملة أوجاع المخاض لساعات، وهي تصرّ على إنجاز الأمر طبيعياً يشجعها على ذلك الطبيب المشرف على ولادتها مؤكداً أن بنيتها متينة وعزيمتها عظيمة، مثنياً عليها كل لحظة ألم قائلاً:

- تستحقين أن تكوني أمّاً، يحدثها عن نفسه أمام دهشة مساعدته لأنه الشخص الغامض الكتوم بما يخصّ حياته الشخصية..

كان طبيباً عربياً، مسيحياً من العراق، درس الطب في جامعة حلب السورية، أحبّ فتاة مسلمة التقاها في اللاذقية أثناء قضائه إجازته الدراسيّة على البحر، وقتها عدل عن ذهابه للعراق.. كان ذلك في بداية التسعينيات حال اجتياح وطنه للكويت، لكن الفرق الديني أجبره على كتمان حبّه عائداً إلى بلاده يحضّر أوراقه ليتابع اختصاصه في ألمانيا ويعود بعدها إلى عراقه التي يعشق بعد سقوط

Scanned with CamScanner

نظام الحكم فيها وتدهور الحال بظهور المتشددين الإسلاميين الذين أحرقوا ممتلكات أسرته وهددوه بحرقه حياً راسمين على باب منزله حرف (ن) أي نصراي لإرهابه نفسياً ما اضطره للمغادرة جسداً إلى عدة دول حتى استقر في روسيا تاركاً جزءاً من روحه يهيم في أرجاء وطنه، يُلازم أضرحة أقربائه يوجعه صراخهم لتسكنه رغم نجاحاته خيبةُ فَقد من يُحبّ، تلاحقه لعنة الحبّ من طرف واحد، مشيراً للعراق كما لحبيبته السورية التي لم يصارحها بحبّه يوماً.

استمعت شمس لقصته وهي تنفّذ تعليماته ما هوّن أوجاعها أمام كربته، هكذا هي ابنتي تشرق لتهب الآخرين فجراً بتماهيها مع أوجاعهم، صافحها بعد انتهاء الأمر مهنئاً نجاحهما معاً قائلاً:

- أشعر أني أعرفك من زمن...

لتجيب مساعدته بمشاكسة: هي شمس السورية استشعر قلبك نسائم الحبّ الأول.

قاطعتها شمس:

- تقول عليا حين تجذبنا ملامح شخص ما، وحين نشعر بالألفة تجاهه كأننا نعرفه، نكون كلانا من روح واحدة تشظّت لتشكّل مجموعنا فتتقاطع سُبلنا وتتلاقى يوماً أرواحنا.

Scanned with CamScanner

وقع اسم عليا على مسمعيه كالصاعقة، فانتفض جسده برجفة ظاهرة أجبرته على لحظة صمت، ليستجمع قواه ويسأل: من تكون عليا؟

- هي أمّي التي تُقاضيها الأماكن بالشوق مثلك.

- أمّك كأنتِ بنت من بنات القمر..؟ سألها بعفوية.

استحضر اللفظ كلّ أحباب شمس، ما وسّع ابتسامتها ومدّها بطاقة من الحبّ الإلهي فأردفت: أنت تردّد كلمات أمي..!

خَمَّن الطبيب أنّ شمس لو صرّح عن حبّه لعليا وبادلته ما كَنَّ لها لكانت ابنته الآن، هو الشرق وضعفنا أمام العادات الموروثة، ما يقتل أحلامنا ويبدّل بخوفنا واقعنا..

طفا على وجهه حزن كبير يشوبه أمل، كتم سرّه، وتقدم منها متوسلاً: اقبلي أن أكون والدك بغربتك، محتضناً إياها بحنان أبٍ، واجعلي ما دار بيننا في غرفة العمليات سِرّاً، لا تحكيه لأحد إلا لولدك حين يصبح شاباً.

اعتقدت أنها فهمت قصده فأضافت:

- تزوجت كميل مدنيّاً، قالتها بتمرّدٍ، وبثقة أضافت: من يحارب ليحقق حلمه فهو يستحق الحياة ومن يَهرب لا يحقّ له العتب،

Scanned with CamScanner

ويجب أن يلتزم الصمت. قالت شمس كلماتها دون أن تدرك أنها أطلقت رمحاً باتجاه قلبه...

خرج تاركاً شمس في حيرة، وهو يردّد: سأعود لأطمئن عليك يا ابنة القمر، مؤكداً على مساعدته إتمام الإجراءات المتبقية وهي التي أدركت ما حلّ به من جراء الحوار، تراقب خروجه بقلق ونظرات تحنان، ما جعل شمس تَشعر بمدى تعلقها به، وهي تستمع مغمضة العينين لمتابعة حديثها عنه:

- إضافة لتميّزه بمجال الطبّ فهو رسّام يُفرّغ بخطوط رسمه وجميل لوحاته ما في أقبية ذاكرته من حبّ وأوجاع وجمال أركان عِراقه الجريح، قالت ذلك بلهجتها المصريّة المحبّبة.

أجابتها شمس: من سَمت روحه حوّل الوجع إلى أمل، والخيبة إلى تميز بالعمل.

لا تفني حبّك بالكتمان.. اخلعي عباءة الموروث وحَلّقي بأحلامك وحاولي ملامستها.

أشرق وجه المساعدة الخمسيني كأنه وجه مراهقة كُشف أمر حبّها.

- إن سمحت لي سأهتم بطفلك طيلة الأشهر الثلاثة الأولى كعربون صداقة. ماذا قلتِ؟

Scanned with CamScanner

- بكل سرور وأحبّ أن تستمر علاقتنا، فتعلّميه لهجتك المصريّة الجميلة.

في اليوم التالي عاد الطبيب إلى غرفة شمس قبل موعده، يجذبه أمرٌ ما، بحجّة الاطمئنان عليها.

استقبلته بابتسامتها المشرقة تراقب مغلّفاً بيده كأنه لوحة، أصابها الذهول عندما مَزّق الغلاف لتظهر عشتار بملامح أمّها عليا بشامة وجهها، يراقبها سائح أو عاشق وهي تبتعد نحو الأعلى بخلفيّة مرجانيّة يشوبها بعض السواد تنعكس على وجهها أشعة قمر بشكل خلّاب، وفي عينيها فيض عطاء، وتحت قدميها حقل سنابل صفراء، وهي تضجّ حياة، يلفّ السائح ظلام باستثناء شعاع منبعث من قلبه، يضفي على مساحته بهاء وحركة يديه للخلف تدلّ على استسلامه للأوجاع.

لم تكتم صرختها أو تمسح دموعها وعندها أدركت أن أمّها هي خيبته، فقالت بتصميم وصوت متقطع:

افتح نوافذ قلبك وحرّرها لتتحرّر أنت، قالت ذلك وهي تمد يدها ليتناولها تمدّه بطاقة الوجد كما علّمتها أمّها بوضع راحتها على راحته وتابعت:

Scanned with CamScanner

نحبس مشاعرنا بكتمان أسرارنا لنصبح سجناء ماضينا، فيكون صدقنا السوط الذي يجلدنا، ووفاؤنا عقوبتنا.

افعل كما فعلت عليا وتزوّج من تُحبّك.. غمزته تُشير إلى مساعدته ميرا، ودع الذكرى أيقونة، انفض غبارها وقت الكربة... هكذا تقول أمي عن حبّها الأوّل.

سأقنعها يوماً بكتابة قصة تسرد جزءاً من جوانب حياتها، التي أخذت تحكيها له.

استمع مجيد لقصة عليا كأنها حكاية نسجها خيال شمس، وشعر أن أعباءه سقطت عن كاهله فبات خفيفاً بعد بكائه عراقه وكل ماضيه، وشرّع نوافذ قلبه ينظر إلى عينيّ ميرا كأنهما واحتا نخيل في مساحة سمراء، ابتسم لشمس وتناول يد مساعدته وغادرا الغرفة لتعود شمس تتأمل اللوحة، وتلامس وجه عشتار كأنها حيّة تستمد منها تحناناً وقوّة كما يد أمها، تلعن سحر الشرق وقسوته..

رغم تسجيل عدد قليل من الإصابات في سورية ، وأغلبها كما يشاع قد أقرّت به وزارة الصحّة المحليّة ورغم تهديدات الصحّة العالميّة بانفجار الوضع في حال التكتّم على أعداد الإصابات، إلّا أنّ الحياة توقفت بشكل شبه كامل، وعلت أصوات الاحتجاج وصراخ

Scanned with CamScanner

الجياع بسبب تردّي الأحوال المعيشيّة وارتفاع الأسعار وعدم اتخاذ القرارات السليمة المدروسة لمساعدة الناس.

في لجّة العوز وقمّة منع التجوّل جاءني خبر وفاة أم نزار - كصدمة - توفيت بعد معاناتها مع المرض على أثر سقوط سبّب عجزها، ممّا اضطّرها إلى أن تلزم الفراش ما يقارب السنة، وكان آخر اتصال بيننا قبل أسابيع لأبارك لها بمولود نزار الأول (علي) وهو الاسم الذي اختارته هي بسعادة لا توصف، ما نقل إليّ طاقة فرح غامرةً، وقتها استغرب فادي سعادتي دون تعليق، واكتفى بتقطيب حاجبيه برهة، ورفع أحدهما مع إيماءة برأسه تدلّ على حيرة.

اقتصرت جنازتها على حفّار القبور ورجال الدين لتنفيذ طقوس الدفن وبعض المقرّبين فقط من الأهل والأصدقاء داخل القرية وتم إعلان تقبّل العزاء عن طريق الاتصالات بسبب الوباء.

كان فادي يرافق نزار كلّ يوم لساعات، وبعد انقضاء أسبوع، انقطعت بينهما العلاقات ليصبحا كأغراب، برّر فادي الأمر:

- العلاقات دافعها الشوق، وما تتطلب ظروفنا أو ما نكنّ بدواخلنا من أسباب، يا عزيزتي ظروف الحياة تسرقنا ليصبح المهم هامشياً في حياتنا، وقد تتوالد في المستقبل أسباباً لعودة المياه لمجاريها.

Scanned with CamScanner

والانطلاق بعلاقة جديدة أو إحياء الماضي البعيد.

- أشعر بما قلت تماماً يا فادي كأنّك تحدّثت عنّي، فقد تلاشى كل ما أكنّه لنزار مع خبر موت والدته، وقد ترك شعوراً يحزنني لا أستطيع أن أفسّره أو أدرك ماهيته.

- الوقت كفيل ببلورة أحاسيسنا ونضج أرواحنا...

أكد فادي شارحاً... ومضيفاً:

- نَمرُّ - يا عليا- بظروفٍ استثنائية، وفوضى كونيّة انعكست على دواخلنا وعلى الطبيعة في آنٍ معاً، أمّا بالنسبة للعلاقات فلكلّ مرحلة ناسها، وقد يكون النسيان معنى اشتقّ من كلمة إنسان، التي تبدأ بالأنس، والنهاية تبتلع البداية بمتغيرات، والدلالة تحوّل الألف إلى ياء، واستجراره من أول الكلمة إلى وسطها كما أنفسنا، وما يطرأ من تفاصيل بعلاقاتنا مع الأشخاص.

- تفسير غير مقنع لكنّه جميل، احتاج منك وقتاً وتفكيراً تقدّر عليه مع دعمي بقوة لعبارة أنّ لكلّ مرحلة روّادها أيّها المحبوب، إلا أنت ستبقى على مرّ العمر شعلة روحي.

رمقها بنظرة أقوى من عناق، فاضت حبّاً وتحناناً.

تناول يدها وقال: لا تسمحي لفوضى هذا الكون أن تلامس داخلك، فأنتِ النّور لقلبي والسّلام، رغم الحروب والظلام.

Scanned with CamScanner

قاطعهما كريم يحمل عدداً من مظاريف بذار الورد، يرافقه رجلان قال إنهما عمّال وأضاف أنه سيباشر بزراعة الخضار وبعض الأشجار المثمرة، وسوف يتابع دراسته من خلال المنصّات الالكترونية ريثما يهدأ الحال، مدّ يده يناول عليا مظروفاً ويقول: تلك البذار لك نظّمي حديقتك وابدئي عملك... غمز والدته وإذا احتجت مساعدة سأستغني عن أبي ليلبّي طلباتك، فهل هناك أجمل من الريف مكاناً للاستقرار بزمن الفوضى والانكسار.

تابع: الكون يفور ويغلي، ولا ندري إلى أين المسير، فلننظّم حياتنا وفق الظروف ريثما تنجلي هذه الغيوم وتنقشع الأخطار..

❖❖❖

Scanned with CamScanner